المحاضرة الأولى

اللغة العربية

في القرن الحادي والعشرين، في المؤسسات التعليمية في الأردن
الواقع والتحديات واستشراف المستقبل

الأستاذ الدكتور سليمان الطراونة
كلية الهندسة- جامعة مؤتة

الثلاثاء 1 ربيع الآخر 1426هـ- 10 أيار 2005م

التوطئة

كيف يمكنني أن أُدلي بدلوي بشأن التعريب وقبلي أدلت وما زالت تدلي دلاء أساتذتي الكبار الذين نالوا قسطاً وافراً من حلواء الأمل بتحقق التعريب قبل ربع قرن من الزمان، كما نالوا أقساطاً من غلواء الإحباط عندما أبصروا وليدهم المأمول خلاصاً للعقول وللأوطان يوأد أمام أبصارهم بأيدي أهله من المقصّرين والمتآمرين والمترددين. كيف يجوز لي أن أقارب هذا الأمر الجليل وكبار أساتذتها أشبعوه بحثاً وتنقيراً وتوصيفاً، وقدّموا أعمق وأشمل وأبدع الحلول الفورية والمرحلية لقضية التعريب وطنياً وعربياً في الكثير من المؤتمرات والندوات واللقاءات والمحاضرات؟!.

كيف يمكنني أن أقول دون أن يتلهم قولي الغول غول التكرار المهول؟ كيف يمكنني أن أجول في أرض التعريب التي تعاورتها قبلي الخيول، كيف أسير على الدرب المعمول دون أن يقع الحافر على الحافر ودون أن أصاب بالتكرار أو التنافر، ... لكن لا ضير ليسامحني أساتذتي إن كررتهم فأنا عقلاً ووجداناً منهم ولهم، وأعتز بأن أصبحت امتداداً لهم...

أهداف التعريب :

من أهم أهداف التعريب عربياً أو تدريس العلوم والتقانة باللغة القومية أنه أساس التوازن بين أساسيات المعرفة واللغة التي تتشكل في رحمها المعرفة، وذلك في عقل الفرد وبالتالي في العقل الجمعي عندما يتكامل النسيج الاجتماعي حول لغة علمية واحدة مما يجعل العلوم والتقنيات بمفاهيمها وثقافتها أوسع انتشاراً وأكثر تأثيراً. وهذا الأمر يؤدي إلى تحقيق الديمقراطية الحقيقية في التعليم مما يُوسّع دائرة

المشاركة في فهم وتطوير العلوم والتقانة ويؤذن بانخراط أكبر عدد من المواطنين في البحث والإنتاج العلمي الذي سيجد المزيد من القارئين والمطوِّرين عندما يُكتب باللغة القومية، ثم إنَّ التعريب يخرِّج الجامعات من عزلتها ومن وظيفتها المتقزّمة كصانعة شهادات فقط، إلى وظيفتها الكبرى التي صنعت النهضات في حضارات أخرى كالحضارة الغربية واليابانية، فجامعاتنا بالتعريب يمكنها أن تتحوّل إلى مراكز إشعاعٍ علميٍّ وحضاريٍّ تُعلي من شأن الثقافة العلمية الضرورية المصاحبة للبحث العلمي والتعليم الأكاديميّ المعرّب، من أجل النهوض بالمجتمع كلِّه عقلاً وإنجازاً.

أهم فوائد التعريب في التعليم العالي :

أولاً: يصبح التدَّريس أكثر حيوية وسلاسة بتعميق التواصل بين المدرس والطالب بلغتهما المشتركة، وهذا تؤكده التجربة العيانية، فنحنُ الذين درسنا في الغرب كلُّنا لا نتقن اللغة الإنجليزية كما نتقن لغتنا لو أردنا، فكيف بطلابنا؟!.

ثانياً: يتسع ويتعمّق استيعاب الطلبة لما يتلقَّون من علمٍ ومعرفةٍ بسبب زوال حاجز اللغة الذي يستهلك أغلب جهد الطالب الذهني أثناء تلقيه للعلم بغير لغته .

ثالثاً : يتمكّن المدرِّس من تغطية المنهاج الدراسي كلِّه، بسبب تجاوب الطلبة وقدرتهم العليا في المتابعة الصفية وفي إنجاز الوظائف البيتية بيسرٍ.

رابعاً : وبالتجربة والإحصاء وبالمنطق، واعتماداً على البنود السابقة، فإن نسبة نجاح الطلبة حتى في أصعب المواد، تزداد عندما يتلقون العلم بلغتهم القوميَّة.

ضرورة التعريب في التعليم الجامعي :

الأردن في مقدمة الدول العربية التي تكاد تصل إلى ما يشبه تعميم التعليم الجامعي، وذلك ليس ضمن خطة مدروسة من الدولة الأردنية، بل استرضاء للضغط الاجتماعي والسياسي المتزايد لتوسيع القبول بشتى أنواعه، وهذا التعميم له فوائده بلا شك، لكن له محاذيره المروّعة على المستوى الأكاديمي للمنتج وهو الطالب المتخرّج وخاصة من الكليات العلمية والتقانية عندما يشق طريقه العلمية بصعوبة بالغة بغير لغته. وبذلك فإن تعميم التعليم الجامعي إن لم يتحقَّق في ظل تعريب مدروسٍ فإنَّه سيتحوَّل إلى كارثةٍ أكاديميةٍ وبالتالي وطنية، فنحن في الكليات العلمية والتقانية إما أن نُرسّب بإصرار، أو نُخَرِّج أشباه المتعلمين الذين لم يتقنوا تخصصاتهم، ولا اللغة التي حالت بينهم وبين ذلك الإتقان، وهذا خيار صعب جداً نعاني من غلوائه صباحاً ومساءً.

يقول شحادة الخوري في مقدمة كتابه دراسات في الترجمة والمصطلح والتعريب: "إن تعليم العلوم والثقافة في البلاد العربية باللغة العربية ليست مسألة للنظر والدرس والمناقشة، بل هي من حيث المبدأ اختيار لا ثاني له، وإن الإنسان لا يختار لغته مثلما لا يختار بلده ولونه وقومه، فهي قدره... اللغة عنوان الذات، لا لغة المنزل والسوق والحياة العادية، بل لغة الثقافة والعلم والتقنيات، ومن استخدم

غير لغته في التعبير عن أفكاره في موطنه، كان كمن لبس غير جلده، أو كمن اتخذ هويَّةً غير هويَّته".

فاللغة العربية هي قدرنا شئنا أم أبينا ولافكاك لنا منها إلا بانفكاكنا منا وتحولنا إلى كائنات تشبه الغربان تنسى لغتها ولا تبدع في لغة مستعمرها.

والدكتور عبد الكريم اليافي في مقدمة نفس الكتاب يقول "وإن اللغة وطن الأمة الروحي، وخزانة تراثها الفكري، ووعاء ثقافتها وآدابها وعلومها، وحاملة هويتها وشعائرها في الماضي والحاضر والمستقبل، ولهذا تحرص الأمة على سلامة لغتها حرصها على ذاتها، وتتمسك بها تمسكها بحقيقتها، وتدافع عنها دفاعها عن حماها". وهذه ليست عبارات رومانسية أو حماسية، هذه حقائق واقعية توليها كل الأمم العناية الفائقة لأهميتها في استمرار حضارتها وتنامي هويتها.

وكما أن الحرب أخطر من أن يُترك أمر القرار فيها للعسكريين فقط، كذلك اللغة والتعليم والتعليم العالي، فمن الخطر على الوطن والأمة أن تُعد اللغة شأناً يخص اللُّغويين وحدهم، وأن التعليم والتعليم العالي شأنان متصلان فقط بالأساتذة والمربين والمسؤولين المباشرين عن التعليم، إنهما شأنان يخصان كل القوى الحية الواعية في الوطن والأمة.

أهمية التخطيط اللغوي:

إن اللُّغة والتخطيط اللُّغوي وبالتالي الأمن اللُّغوي، والتعليم والتعليم العالي وبالتالي الأمن التعليمي، هذه القضايا شؤون استراتيجية مهمة تمسُّ جوهر أمن الأمة والوطن وجوهر الحضارة والتحضّر، فالتفريط بالشؤون اللُّغوية والتَّعليميَّة بالَّسماح لها بأن تكونَ مجردَ شؤونٍ خاصة بالمدارس والمعاهد والجامعات هو

تفريط بالماضي والحاضر والمستقبل وتحويل للمجتمع بأسره إلى نثار من حبات القش تلعب بها رياح التغريب والاغتراب في كل الاتجاهات، كما هو حاصل في بعض الدول العربية، وكما تتنامى بوادره المروعة في الأردن راهناً ضمن مسلسل بدأت حلقاته منذ آن، وهي في تنامٍ مضمخ بالشنآن! .

فمؤسسات التعليم كالمدارس والمعاهد والجامعات ومؤسسات التوجيه كالمجامع ومراكز التنسيق لا يجوز أن تترك جزراً سابحة في بحر من الضياع غير المنسوج مع المجتمع وقواه الثقافية والسياسية وسلطاته الدستورية، فهذه الجزر بؤر نور كاشف إن أسرج المجتمع بقواه الحية المحيية سُرجها واستضاء بضيائها، وهي بؤر تشتت وضياع وبلبلة إن ساهم المجتمع في حرفها عن غايتها المثلى، أو أدار ظهره لها، وسمح بالتناقضات القاتلة أن تعتورها من كل جانب، فالأمن اللغوي والتعليمي ثقلهما الأَساسي فكري وسياسي من الطراز الأول قبل أن يكون لغوياً وتعليمياً وتربوياً، فإما أن تُدرك الأمة والوطن أهمية هذا الأمن وأولويته على كل أمن من خلال جهود ساستها ومفكريها وعلمائها قبل مدرسيها وتربوييها، أو أننا سننال جميعاً قسطاً وافراً من لعنة التاريخ إن تابعنا التفريط بلغتنا في تدريس وتوصيل العلوم والتقانة في مدارسنا وجامعاتنا ومجلاتنا العلمية ومراكزنا البحثية.

فنحن منذ عقود من التعليم الجامعي في الأردن أمام محك صعب لم نستعدّ له بما يستحق من العدة، لكننا مستقبلاً أمام محك أكثر منه صعوبة، فإن لم نُدرك أنفسنا وأوطاننا وأمتنا كنا لأوطاننا كحامض الكبريتيك المنسكب لإذابتها لتصبح مركبات غريبة تمتزج مع عناصر مستغربة أخرى تُعيد صياغتنا على عينها التي تروعنا نظرتها ولا ترعانا لغتها.

الكهانة اللغوية والتبيئة التقانية:

العلم المنفصل لغوياً عن مجتمعه هو شكل من أشكال الكهانة الفرعونية، إذ إنَّ قسطاً وافراً من ممارسات الكهنة في عهود الفراعنة كان علمياً بمفهوم العلم في عصرهم، لكن لانفصال ذاك العلم لغوياً عن مجتمعه باد لتقوقعه بلغة الكهنة والفراعنة، ولم يمتد إلى لغة الشعب لينميهم اجتماعياً وسياسياً وعقلياً ولينمو بهم، فالازدواجية اللُّغوية بين العلم والحياة تجعل العلم والتقانة شكلاً من أشكال الكهانة الحديثة التي تنفصل عن مجتمعها، فلا تؤثر فيه تنموياً قيد شعرة، ولا تنهض بطرائق تفكيره ، إلا في بؤر نخب كهنوتية محدودة!.

فلا بد من استعمال لغة الأمة في الكتابة العلمية والتقانية للمتخصصين وللمتعلمين من غير المتخصصين، ومن ثم لتثقيف الجماهير بتحويل زبدة العلم والتقانة إلى ثقافة عامة، مما يجعل تفكير المواطن أكثر تنظيماً ومنطقية واستقامة واستقلالية، لأن العلم وطرائق تحليل العلم بلغة الناس تساهم في تنظيم تفكيرهم وبالتالي تجعل المواطن أقرب إلى القرار السليم في حياته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. فالثقافة التقدمية هي العلم عندما يصبح في متناول الجميع مُتمثّلاً من الجميع بلغة الجميع وهي اللغة العربية، ولكن استعمالات اللغة الإنجليزية كبديل تُكرّس الانفصام بين أهل العلم وغيرهم من المتعطِّشين لثمار العلم المادية والمعنوية والمفاهيمية ..

كما أن استعمال اللغة القومية في تعلّم أساسيات التقانة يُزيل سحر التقانة عن الأذهان، فلا تعود منتجاتها مجرد صناديق سوداء نستعملها كأنها نتاج كائنات

من عوالم أخرى، ونحن مستهلكون مشدوهون لا نعلم من أسس التقانة وابتكاراتها وصيانتها وتعديلاتها شيئاً يُذكر.

فخطط التنمية من أسباب فشلها في العالم الثالث وخاصة الوطن العربي، ومنه الأردن، هو عدم التزام القواعد السكانية بتلك الخطط، لعدم معرفتها بتلك الخطط المكتوبة في اللغة الإنجليزية غالباً، ولعدم مشاركتها في الوصول إلى القرارات المتعلقة بتلك الخطط.

فكيف ننتظر التزام القواعد الشعبية بخطط التنمية، مع العلم بأن هذه الخطط المُستمدَّة من العلم والتقانة والإبداع والصياغة تُعرض وتُحلل في سياقات أغلبها بغير اللغة العربية، والقواعد الشعبية التي نُحمّلها أعباء التنمية، وتتحمل أسر نتائجها السلبية عند فشلها يُحال بينها وبين العلم والتقانة وفلسفة التنمية الحداثية بالحاجز اللغوي الذي يُقدّم كل شيء ذي بال بغير اللغة العربية، فيدخل بذلك المواطن في سياقات علمية وتقانية وتنموية لا يفهمها ولم يشارك في بلورتها أو تبنيِّها، وبالتالي لا يهمُّه نجاحُها ليسعى له أو فشلها إن وقع على رأسه، وهو غالباً كذلك!.

فالتنمية تقوم على قاعدةٍ عريضةٍ من أصحاب المهن من الذين يُدارون من قبل خريجي الطب والصيدلة والهندسة والزراعة التخصصات العلمية والتقانية الأخرى كافةً، وهذه القاعدة العريضة أفرادها غالباً إلمامهم بالإنجليزية متدنٍ للغاية، فكيف تساهم الجامعات برفع سويَّتهم إذا كان التَّدريسُ والبحثُ والنشرُ بلغة غير لغة الفني والعامل الماهر ثم العامل العادي. هذه المهن تتلقَّى النموذج أو القرار الهندسي أو الطبي أو الزراعي المصاغ أصلاً باللغة الإنجليزية، لكنه يصل

الفني وبالتالي العامل الماهر ومن ثم العامل العادي بلغة خليط فقدت إنجليزيتها، لكنها لم تتعرّب تماماً!.

فالتعريب الذي هو جوهر التبيئة التقانية هو قضية استراتيجية وليست تكتيكية أو تجريبية أو آنية، إنه أساس النهوض العربي وأساس التقدم الوطني، إذ دونه يبقى العلم والتقانة معرفة متداولة في أوساط النخبة– الكهنة، كما كان الأمر في لغة العلم قبل النهضة الأوروبية إذ كانت أُوروبا في سجن اللاتينية المعزولة عن الناس، لكن عندما انحاز الكتّاب والباحثون والمدرسون والعلماء الى لغة الناس انبعثت روح النهضة في الناس، لذا فالتعريب في المدارس والجامعات ومراكز الأبحاث ضرورة مجتمعية نهضوية تنموية قبل أن يكون ضرورة علمية أكيدة.

وقد قامت الجمعية العلمية الملكية ردحاً من الزمن بالتأليف الذي ينشد بيئة العلم والتقانة في الأوساط العلمية الأردنية انطلاقاً من التراث العلمي العالمي ولا سيما الأوروبي في لحظاته التاريخية الحاسمة التي تجاوز بها ذاته، وتحرَّر من الكهانات الفكرية واللغوية السابقة. وقد قامت الجمعية بصياغة تلك اللحظات بدلالات عربية، من خلال التأليف المبدع والترجمة بتصرّف، مع التركيز على المغزى الحضاري لتلك اللحظات من أجل التثقيف العلمي بالفكر العلمي النهضوي المتواشج مع لغة الشعب، لكن ذلك الجهد الطليعي تعثَّر لاحقاً عندما دخل التَّغريبيون على الخطّ!.

اللغة، العلم، التقانة ، التنمية في حضارتنا:

طالما كان هنالك تفاصل غير حميد، بل تدابر مبيد بين مداليل هذه الكلمات في كثير من الحضارات الإنسانية، فكثيراً ما كانت مداليل لغة العلم غير لغة التقانة غير لغة التنمية، بل إن الحضارة اليونانية التي تعتبر جذراً مهماً للحضارة الغربية كان أصحاب المعرفة النظرية فيها غير أصحاب المعرفة العملية، وبذلك تدابرت لغة العلم ولغة التقانة في الحضارة الواحدة. لكن الحضارة العربية الإسلامية التي نقلت الحضارة الإنسانية نقلة نوعية هائلة تمازجت فيها لغة العلم ولغة التقانة ولغة التنمية في إطار اللغة العربية، لغة تلك الحضارة الخالدة، وكل ذلك انطلاقاً من الأسس الراسخة والمزهرة للفكر التجريبي القائم على المبدأ الديني المنبثق من خلافة الإنسان في الأرض التي يُستعاذ في إطارها من علم لا ينفع. فالنفع العام هو أساس العلم والتقانة، وبالتالي التنمية في الحضارة العربية الإسلامية.

وكل ذلك لا يُؤتي ثماره إلا إذا ما غُرس ونبت وأثمر في لغة الأمة ذاتها، وانطلاقاً من مدارسها وجامعاتها ومراكزها البحثية. فالترابط الفريد الذي حصل في حضارتنا العربية الإسلامية بين لغة العلم ولغة التقانة ولغة التنمية ولغة الشعب هو نتاج الروح الجماعية الحية والقيادات الواعية حضارياً رغم احترابها المرير سياسياً وعسكرياً. فحضارتنا تلك أذابت الحضارة الإنسانية كلَّها في لغتنا العربية في المساجد والمكاتب والمكتبات ودور الحكمة، بمشاركة أغلب طبقات الشعب بمن فيهم الحكام والنخب السياسية أحياناً، مما جعل التعريب في العلم والتقانة من أشرف المهن قاطبة يشترك في التشرّف بها الحاكم والمحكوم، وحتى الموالي والعبيد الذين أدخلتهم أدوارهم الجليلة في حضارتنا ولغتنا سجل الخلود.

العلم والتقانة وصناعة الإنسانية:

للعلم والتقانة أدوار بارزة في صناعة التاريخ والحضارة، وفي أنسنة الإنسان أو مكننته. فإن تلقَّى الإنسان العلم والتقانة بلغته فإنه يتأنسن بهما، فبالتعريب يتأنسن الإنسان العربي وتصاغ إنسانيته الفاعلة، أما بالتغريب فإن الإنسان العربي يتمكنن أي يصبح مجرد ماكنة تُعيد فرز وترتيب وإعادة تدوير ما ينتجه الآخرون، فكل شيء مصنوع هو بالنسبة للإنسان الممكنن صندوق أسود يعمل دون أن يُعْلِمٌ مُشغّله ما يجري في داخله، لأنه أُنتج بغير لغته لذا يأخذه إنساننا الممكنن على علاَّته ولا يتصرف بشيء من أمره. بل إنَّ الإنسان الممكنن في العالم المتعثِّر التنمية ومنه أمتنا لا يحسن تشغيل أو صيانة أدوات التقانة لأنه يجهل اللُّغةَ التي تُدخله إلى ما بداخلها. فأغلب المنتجات التقانية ينتهي عمرها عندنا قبل انتهاء عمرها الافتراضي، وهل من هدر أكبر من هذا الهدر لطاقات الأمة ومقدراتها.

بدأ التعريب تقانياً في مصر وسوريا:

مصر التي بدأت التعريب العلمي والتقاني منذ ما قبل أواسط القرن التاسع عشر كان يمكن أن تكون قائدةً لكل بلدان العرب في هذا المجال الذي سبقت به اليابان بعقود، لكن حصلت انكسارات وانحسارات مبكرة في عملية التعريب وبالتالي تبيئة العلم والتقانة في مفاصل المجتمع بسبب التدخل الاستعماري السافر في ذلك، والتزام وكلاء الاستعمار بخطط الاستعمار لغوياً! فبينما التزمت اليابان بتبيئة العلم بلغتها مما جعله جزءاً أساسياً من ثقافتها، إلا أن المستعمر ومن ثم وكلاء الاستعمار أرادوا لنا دائماً أن نُعمّق الارتباط بلغة المستعمر، وأن نضعف روابطنا

بلغتنا حتى نبقى عالة تابعة لكل ما يُقدّمه المستعمر لنا من سمك العلم البلاستيكي الجاهز، بدلاً من أن نجهد أنفسنا في تعلم صيد سمك العلم الحي بلغتنا الحية المحيية وبأنفسنا كي لا نكون عالة متهالكة على غيرنا ممن لا يريدون أيّ خير بنا وبأوطاننا وأمتنا، والهجمة الراهنة من الأدلة القاطعة المتكررة...

لماذا بدأ تعليم العلوم كلها باللغة العربية في الجامعة الإنجيلية في سوريا والتي أصبحت فيما بعد الجامعة الأمريكية في بيروت؟ فلقد كانت الجامعة حينها مضطرة لما يشبه الترجمة الفورية لأن أغلب المدرِّسين للعلوم والعلوم التطبيقية لم يكونوا عرباً، ولأن المقصود سهولة التوصيل وبالتالي الوصول إلى عقول الطلبة وليس تسهيل الأمر على المدرسين والجامعة، فكانت لغة الطلبة الأم العربية، هي الخيار الوحيد حينها. وفي سنين قليلة تنامت الترجمة الفورية والترجمة الأكاديمية والتعريب بالإضافة للتعليم بالعربية في الجامعة الإنجيلية وما حولها. ولم يكن التراجع عن التدريس باللغة العربية لأسباب علمية أكاديمية وإنما لأسباب سياسية بعد أن زحفت جيوش الإنجليز على مصر وبدأوا في إدخال الإنجليزية بديلاً عن العربية في كثير من المؤسسات التعليمية تحولت الجامعة الأمريكية عن العربية إلى الإنجليزية. فالاحتلالات في أي جزء من البلاد العربية تفرض التنازلات والاختلالات والتحولات الطوعية في أجزاء أخرى من وطننا العربي المكشوف الظهر.

عالمية العلم وخصوصية أهل العلم:

فالعلم والتقانة عالميان والأصل ألا يكونا مرتبطين بأي مكانٍ أياً كان، لكن ليس بالإمكان نقلهما إلى أي مكان عبر الزمان إلا بلغة ذلك المكان، فإن لم يكن

للعلم أوطان فإن للعلماء أوطاناً ينتمون لها من خلال لغاتهم المتجهة بالعلم والثقافة إلى أوطانهم. فتبيئة العلم والتقانة وتوطّنهما لا يكون إلا بلغة الأوطان، وتعريب العلوم والتقانة هو إعادة الأمور إلى طبيعتها، فمن الطبيعي جداً أن تتعلم وتعلم كل أمة بلغتها الخاصة بها، والتعلم والتعليم بلغة المستعمر هو الاستثناء، فكيف أصبح الاستثناء منطقياً وتاريخياً وقانونياً وهو القاعدة التي يدافع عنها البعض في السر والعلن، ويعملون لها دون كلل!.

وهذا ما يؤكده الأستاذ الدكتورعادل جرار بعد تجربة مثمرة لكن مريرة مع التعريب وأنصاره المتردّدين وأعدائه المتنفذِّين.

" من هنا أتينا في مسألة تدريس العلوم في الجامعات الأجنبية، فالمتحدث لم يؤد مهمة التعبير الصحيح عن ما يتحدث بشأنه، ولم ينجح في نقل المفاهيم العميقة والمتضمنة فيه، والسامع يأخذ عنه وعن الكتب (الأجنبية اللغة) بعد ذلك محصولاً ناقصاً لا يصلح أساساً يبنى عليه الاستيعاب والتمثّل ومن ثم الإبداع...".

إن الدعوة إلى تعريب العلم والتقانة وتدريسهما بالعربية هي دعوة لرأب الصدع بين المتخصِّصين والمجتمع وفي ذلك دعوة للابتعاد عن الكهانة العلمية أي القطيعة اللغوية بين رجال العلم والشعب بكل شرائحه.

فأنصار التغريب يرون التعريب جداراً سميكاً سيؤدي إلى الانغلاق والإفقار العلمي والتقاني وبالتالي الحضاري، في حين أن التعريب هو جوهر الانفتاح والإغناء، إنَّه انفتاح على مفاصل الوطن بكل طبقاته الاجتماعية عبر جسر اللغة الواحدة، وهو انفتاح على الآخر بالمثاقفة النّدّية الواثقة وليس المثاقفة التابعة، بينما التغريب أو التغرب في رحم لغة المستعمر انغلاق عن المجتمع، وإفقار كبير لدور

التعليم الوطني الحر والبحث العلمي الفاعل، مما يؤدي به للوقوع في براثن التقوقع عن السياق العام في المجتمع.

صعوبة التعريب المُدّعاة:

التعريب بكل ألوانه وخاصة الأكاديمية والبحثية منها هو صعود إلى أعلى، واستصدار قرار سياسي مُلزم للجميع صعود سياسي وثقافي وأكاديمي، أما الاستنامة لعدم التعريب فهو شكل من الانحدار الأكاديمي والثقافي والتقاني. نحن جميعاً نعلم أن الصعود يحتاج إلى طاقة وجهد واجتهاد وتجاوز لصعاب جمة، لكن الاستنامة للانحدار فلا تحتاج إلا للاستسلام للجاذبية التي تشعر المنحدر أنه يمتلك ويطلق طاقة زائدة زائفة تشبه طاقة الوضع، ولن ينتهي هذا الشعور الزائف بالطاقة الزائدة إلا ببلوغ منتهى وادي الانحدار التغريبي، ولا منتهى لمثل هذه الوهدة إلا بالفقدان التام للهوية، وبتكريس التبعية الثقافية والأكاديمية والبحثية، وبالتالي الاجتماعية والسياسية، أما التعريب الذي يستصعبه البعض فهو الصعود الشاق لاكتساب طاقة الوضع الحضارية، لذلك فإن أي قرار إيجابي بشأن التعريب لن يكون سهلاً في ظل الانحدار الشامل، لكن مثل هذا القرار لا بد منه لإيقاف عجلة الانحدار من الوصول بنا إلى قعر المنحدر الحضاري حيث لا طاقة وضع، بل ضعة وضياع أكاديمي وحضاري.

فالسؤال الذي ما زال يلحُّ علينا جميعاً ساسة ومفكرين وأساتذة:

هل اللغة العربية عاجزة عن أن تكون لغة علم وتقانة؟ سؤال ما كان يمكن أن نقاربه لولا دخول الأمة في حمأة الزمن الرديء منذ ما قبل بداية القرن العشرين. إذ تجرأ البعض من قصيري النظر وبدأوا بالتشكيك بصلاحية اللغة

العربية للعلم والتقانة درساً وتدريساً وبحثاً في المدارس والجامعات ومؤسسات التدريب والبحث العلمي، رغم أنهم يرون لغات أخرى أثبتت جدارتها في هذا المضمار كالعبرية والهنغارية والهولندية وغيرها، رغم أنها لا تملك عراقة اللغة العربية وامتدادها الزماني والمكاني وسعة ذخيرتها التوصيليَّة والتواصليَّة في شتى فروع المعرفة البشرية منذ قرون متطاولة...

وقدرة اللغة العربية الفائقة تتبدَّى من خلال مرونتها الفائقة في التوليد المبدع البالغ الأهمية للغة العلم والتقانة المتجددة، وذلك باتخاذ طرائق الاشتقاق والنحت أو التركيب، والمجاز، والاقتراض أو التعريب اللفظي، وغيرهما مما لا مجال للتفصيل فيه في هذا المقام.

فتبيئة العلم والتقانة هي أساس رفعة المجتمع وأساس الإبداع المجتمعي للعلم والتقانة المتأصلان في النسيج الاجتماعي الواحد الذي ينشد تشكيل الكتلة التاريخية التي تصهر كل شيء في لغة الأمة لتكون النقلة الحضارية الواحدة بحراك هذه الكتلة ابتداء من مؤسسات التربية والتعليم والتعليم العالي من خلال اللغة القومية التي تمثل جوهر التقدم الأصيل في أي أمة.

وكما يقول الدكتور محيي الدين صابر: "إن التعريب يساوي التقدم، وليس من السهل اقتحام المعاصرة إلا باستنبات العلم في اللغة العربية وتوطين التقانة، وإنما يبدأ ذلك كله من التعليم والبحث..." لأن التعليم والبحث بغير لغة الأمة يمثل ازدواجية وهو شرخ فردي وعلمي واجتماعي واقتصادي، وبالتالي سياسي.

غربة التعريب والتَّشوهات الواقعيَّة :

يقول الطاهر لبيب في مقاله " العجز عن التعريب في مجتمع تابع" المستقبل العربي العدد 29 تموز 1981 "إنَّ المجتمعات العربية التابعة عاجزة، بنيوياً عن إنجاز مشروع التعريب، حتى ولو تبنته أنظمتها سياسياً، فهنالك قوى سياسية اجتماعية متزايدة كمّاً ونوعاً وتأثيراً ترتبط مصالحها بالسوق الذي يقوم على استهلاك فكري وسلوك ثقافي واستعمال وظيفي للغة أجنبية أكثر مردوداً ونفعاً...".

فقوى الربح السريع ترى أن التعريب مكلف اقتصادياً لذلك تستسهل استعمال لغة المستعمر في فعالياتها الهندسية والعلمية والتجارية، وهذه القوى تقاوم التعريب مصلحياً، والأستاذ الجامعي المؤمن بالتغريب أو المتردِّد بين أهمية التعريب والاستنامة للتغريب كالتاجر كلاهما يُشكّل حاجزاً آنياً لإعاقة القرار في شأن التعريب، لكن لو جاء القرار فإنهما سيسبقان الجميع في التسبيح بحمد التعريب وتأكيد دوره وتقديم الترجمات والتأليفات المُدعّمة له. فهو كالتَّاجر الماهر الذي يهتبل الفرص المتاحة، إن أتاحها أصحاب السلطة.

فالأُستاذ الجامعي التابع علمياً كالتاجر التابع تسويقياً للوكالات الأجنبية، كلاهما مُعيق بنيوياً لأيِّ جهدٍ تعريبي فاعل، لأن كليهما وكيلان لما يسوّقانه ولا ينتجانه، لكن هل من الممكن أن تكون مسؤولية الأستاذ الجامعي الأخلاقية كمسؤولية التاجر نحو وطنه وأمته ومهنته، أليس من أول واجبات الأستاذ أن يكون مبادراً وليس تابعاً، ساعياً للارتفاع بالمجتمع، وليس مستسهلاً لسلوك الطريق المسلوك، وليس مُكرّساً لغربة التعريب خضوعاً لتشوهات الواقع الذي يستهلكه السوق...

فمعارضة التعريب أو التردد في شأنه لأسباب أساسها مُتطلبات الواقع التي شوَّهتها الأيام، هذه المعارضة فيها ملمح واضح أو متخفٍّ من عدم الثقة وضآلة الإحساس بأهمية دور الأستاذ الجامعي، وهي استجابات معيبة لا يجوز أن تكون صفات الأستاذ الأكاديمي المُعدّ تعليمياً وعقلياً وخلقياً لأن يكون صانع أجيال وليس مصنوعاً هلامياً حسب ما تقتضيه الأحوال المتردِّية لأسبابٍ خارجيةٍ كاسحةٍ وداخلية مستخذيةٍ. فتشوهات الواقع المصاب بحمى الاغتراب الاستجابة الواعية لها العمل على علاجها وليس تكريسها كأمر واقع...

عقبات فنيَّة أمام التعريب وسبل تجاوزها:

أ- المصطلح العلمي:

المصطلح العلمي طالما أُشير له على أنه مشكلة المشكلات في شأن التعريب، لكنها حقيقة مشكلة متخيلة ومُضخّمة حلها ليس متطلباً سابقاً للتعريب، بل جزء مهم من عملية التعريب نفسها، فتوحيد المصطلحات عمليَّة حيويَّة، لكنَّها ليست شرطاً للتعريب، بل تتكامل أثناءه، ففي اللغة الإنجليزية معبودة التغريبيين مصطلحات متعددة لنفس المفهوم. والمصطلح العلمي والتقاني مكانه الطبيعي ليس بطون المعاجم بل حياته الحقيقية المتنامية هي الكتاب الأكاديمي والبحث العلمي والمختبر والمحاضرة الأكاديمية والندوات والمؤتمرات العلمية. فحياة المصطلح

العلمي أو موته هي الميدان العلمي، ومكانه الحقيقي هو الاستعمال الفاعل المتفاعل، فكيف نحكم غيابياً ونحن لا نستعمل؟ ومع ذلك فللمجامع العربية ولا سيما مجمع اللغة العربية الأردني أدوار فاعلة ومباركة في شأن توليد المصطلحات العلمية والتقانية وإشاعتها وتوحيدها.

ب- الكتاب الجامعي المعرب:

الكتاب الجامعي المترجم أو المؤلف في الأردن خلال ربع القرن الأخير هو من أجود الكتب الجامعية من الناحيتين العلمية والمهنية في إخراج الكتب شكلاً ومحتوى، وهذا الرأي ليس من باب إطراء الذات بالنسبة للكتب الجامعية المعرّبة في الدول العربية المجاورة، فالكتب ماثلة أمامنا ويمكن حتى لغير المتخصصين أن يروا الفروق ظاهرة للعيان. ورغم ذلك فإن الكتاب الجامعي المعرّب تأليفاً أو ترجمة غالباً غير متوفر والمتوفر منه، إما تجاوزه الزمن لعدم ملاحقة الجديد علمياً وتقانياً، أو أنه مُقدّم بحلَّةٍ طباعيَّة رثَّةٍ وبرسومات توضيحيّة باهتة تحتاج إلى توضيح، وهي غالباً نتاج طباعة تصويرية، الحروف فيها غير واضحة، والمعادلات بحاجة لمنجِّمٍ ليتأكد من ماهية الرموز المتداخلة الموجودة فيها، وما زالت الجهود المبذولة لتلافي هذا النقص موجودة لعدم تبني تدريس الكتب المعرّبة، ولو جاء القرار لرأينا شلالاً من الكتب الأكاديمية المتنافسة على الجودة العالية.

جـ- الأستاذ الجامعي المعرب:

الأساتذة الجامعيون في الأردن على ثلاث ملل في شأن التعريب، فريق تغريبي نافذ الرأي بالفعل أو بالقوة، وفريق تعريبي مقموع معنوياً ومادياً، وفريق

ثالث يشكل الأغلبية الساحقة الصامتة، وهذه الأغلبية مستتيمة للأمر الواقع الشاذ الذي شرّع عملياً لجعل الاستثناء باستعمال اللُّغة الأجنبية هو القاعدة، واللغة القومية زائدة دودية على هامش اللُّغة الأجنبية في الكليات العلمية والتقانية والطبية والزراعية . هذا الواقع الشاذ المحير أساسه بسيط ولا يستوجب إلا القليل من الصراحة مع الذات من أجل وضع الأمور في نصابها الصحيح حيال الوضع الحقيقي للأستاذ الجامعي بالنسبة للتعريب الأكاديمي في الأردن.

فالتفحُّص الدقيق الشامل لعلاقة أستاذنا الجامعي بالقضايا التعليمية والتربوية والتعريبية يظهر لنا أمراً غاية في الإدهاش، وهو أن نسبة أساتذة الجامعة وخاصة في الكليات العلمية من أصحاب الفكر والرأي والرؤية قليلة وقليلة جداً، والأغلبية الساحقة من أساتذتنا هم مجرد جيوش من الموظفين في سلك التعليم العالي لا تهمهم إلا مكانتهم الاجتماعية ورواتبهم وترقياتهم وعملهم الإضافي ومكافآتهم وغيرها وغيرها من أمور الموظفين العاديين ، لذا فإن أمر التعريب الأكاديمي في الأردن لا ينتظر له أن يأتي قراره نتيجة ضغط الأستاذ الجامعي وحده. ومقاومة الأستاذ الجامعي في الأردن للتعريب بالصراحة أو بالصمت أو بالتردد أيضاً ليست بالعقبة الكبرى أمام التعريب. فعلى أهمية الأستاذ الجامعي عندنا من الناحية النظرية لكنه عملياً أصبح قشة هشة تلعب بها رياح الواقع العاتية، فتعريب الأستاذ الجامعي يمكن إنجازه بجرة قلم إذا كان هنالك القرار المجتمعي والسياسي النافذ حول إلزاميّة التعريب، من خلال ربط زيادة الراتب والترقية والعلاوة والمكافأة بالإنتاج العلمي المعرّب، عندها سنرى عجباً، إذ ستتبخر كل العقبات وستتكاثر الكتب المعرّبة، وسيتنافس المتنافسون على إنجاح التعريب

بكل السبل، وسيجد الأستاذ الدكتور عبد الكريم خليفة وكل مشيخة المعربين في الأردن أنفسهم مسبوقين بآخرين من المتشوِّفين للصدارة عندما يصبح التعريب الجامعي والمجتمعي سياسة عامة وخطة دولة تتبنى قيادة التعريب في هذه الأمة، عندها سيتسابق التغريبيون والمثبطون والمترددون والمتقاعسون والمستنيمون لإنجاح التعريب من خلال التأليف والترجمة والبحث والتدريس وتكريس أمر واقع أصيل بدلاً من الأمر الواقع التغريبي الحالي الذي جعل الأستاذ الجامعي كائناً فاقداً لوزنه وتأثيره وثقته بنفسه، بل كائناً يتشكّل حسب متطلبات الواقع بدلاً من أن يُشكّل الواقع بقوة علمه وإيمانه بدوره الأصيل...

د- الطالب الجامعي المعرَّب:

رأي الطالب الجامعي في الأردن مهم، لكنه ليس معضلة في شأن التعريب حتى لو قاوم التعريب بعض الطلبة وخاصة المتشوفين منهم لإكمال دراستهم العليا، وحتى لو ادّعى البعض الآخر أن اللغة الإنجليزية هي الفضلى لمهنتهم في المستقبل في الأردن وخارجه، لكن الأغلبية كالأساتذة بلا رأي مُحدد تندفع مع تيار سيل التغريب دون أن يرفَّ لها جفن، رغم أنهم يعانون أشد المعاناة من اللغة الإنجليزية! .

ولنكن واقعيين وموضوعيين دون مجاملة أو مواربة، فطالبنا الجامعي قلَّما ينشد العلم والمعرفة، بل همُّه الأكبر مع الأسف الشديد العلامة ومن ثم الشهادة،

وإن جاء العلم كمنتجٍ مصاحبٍ أو منتج جانبي فلا ضير بالنسبة للغالبية الساحقة من طلبتنا فيما عدا النجباء الذين غالباًً ما يكملون دراستهم العليا، لكنهم أقلية لا يجوز القياس عليها، ولا يجوز رسم الخطط الجامعية التعريبية أو غيرها بناءً على هذه الفئات المتميزة.

فالطالب الجامعي عندنا كأستاذه لا يملك موقفاً فكرياً مسبقاً بشأن التعريب أو التغريب، فإن وجد كتاباً مناسباً باللغة العربية في مواده في العلوم والطب والهندسة مع أستاذ متخصص يتقن التعليم بلغة أمه وأمته، ثم امتحانات معرّبة ينجح فيها أكثر مما ينجح في الامتحانات غير المعرّبة، وبالتالي يصل إلى شهادته الجامعية بأيسر مما كانت تأتيه باللغة الإنجليزية التي لا يتقنها أصلاً، بالإضافة إلى العلم بتخصصه الذي يأتي مصاحباً لتلك الشهادة بقالب ومحتوى أقرب إلى فكره وفكر مجتمعه، عندها فإن الغالبية الساحقة من طلبتنا سيتظاهرون احتجاجاً على أي محاولة لإفشال التجارب التعريبية. فإن عملنا على طالبنا بكل واقعية وحسب احتياجاته الحقيقية فإنني لعلى يقين تام بأنه ستكون له أبرز الأدوار في الحفاظ على تعريب التعليم الجامعي وسيساهم في منع تغريب التعليم المدرسي بعد أن يتخرَّج ليعلِّمَ في المدارس أو يعمل في مشارب الحياة المختلفة.

هـ- تمويل التعريب في الأردن

القرار السياسي والمجتمعي ومن ثم الأكاديمي مهم للغاية لتحقيق التعريب لكن يجب أن يُترجم إلى تمويل سخي، لكي يؤدي غرضه كاملاً في دعم التأليف والترجمة، رغم أن الكتب المؤلفة أو المترجمة إذا ما أصبحت رسمياً متبناه لمواد دراسية محددة لسنين، فإنها ستموّل نفسها بنفسها، وقد تُحقق ربحاً مجزياً

للأشخاص أو الشركات أو الهيئات الداعمة. ولهذا السبب هنالك دور نشر أجنبية تعلم علم اليقين أن الترجمة أو التأليف باللغة القومية للكتب الأكاديمية المقررة ستدر عليها أرباحاً مجزية، لذلك تأتي وفودها إلينا وتلتقي بالأساتذة في الكليات العلمية والهندسية والطبية، وهم يعلمون أو يتشوَّفون لأن يصبح الأردن مركزاً إقليمياً في هذا الشأن، لذلك يخطِّطون من الآن، وقد تعامل بعض أساتذتنا مع بعضهم، وما زالوا بشكل إيجابي مما يحقِّق الربح بعد أن يخدم العمليَّة التعليميَّة من أساسها.

فتمويل التعريب في الأردن سواءً من خلال الجامعات أو المراكز البحثية أو وزارة التعليم العالي أو مجمع اللغة العربية أو من خلالها جميعاً هو ضرورة كبرى لكنه قد تتضاءل ضرورته مع ترسخ قدم التعريب. وبسبب الإقبال الهائل على التعليم العالي قد يُحقِّق التعريب ربحاً للقائمين عليه لتمويل مشاريع أخرى. فأمره حقيقة كأمر التفاعل الكيميائي أو النووي يحتاجان لطاقة أوليَّة لتحقُّقها، لكن التفاعل ذاته قد يُطلق طاقة تساوي عشرات بل أحياناً ملايين أضعاف الطاقة الأولية المطلوبة لإحداث التفاعل، وهذا شأن أي تحوّل من حالة الى أخرى، كالتحوّل من الاستنامة للتغريب إلى النهوض بالتعليم والوطن والأمة بالتعريب، يحتاج للحجم الحرج والطاقة الحرجة، وعندها ستنطلق طاقات الأمة الهائلة من قمقمها بإذن ربها.

دور الأوقاف الإسلامية والمسيحية في تمويل التعريب:

وهنا فإنني أدعو القائمين على الأوقاف الإسلامية في الأردن والعالم العربي إلى المساهمة المالية الفعليَّة في تعريب التعليم، لأنَّ خدمة العربية من

صلب خدمة الدين ، وبذلك يساهم الوقف الديني في إيقاف الانحلال الحضاري بفقدان اللغة العربية التي هي جوهر الهوية، فلا بد من سنِّ قوانين وقف أو أوقاف مخصصة لتعريب العلوم والتقانة للحفاظ على لغة الأمة وهويتها وبالتالي دينها، عندها يكون للوقف أثر علمي جليل كأثره في أيام الحضارة العربية الإسلامية الزاهرة. كما وأدعو القائمين على الأوقاف المسيحية إلى العمل على المشاركة في تمويل التعريب، لأن التعريب جزء أساسي من الدور الفاعل لأجدادنا من العرب المسيحيين، وأحفادهم منا قادرون على الاضطلاع بدور أجدادهم ولتكن للكنائس وأوقافها دور بارز في ذلك تمويلاً ورعاية، تأكيداً لهوية المسيحية العربية الأصيلة عرقاً وحضارة.

و- الحوسبة والعوربة:

التحديث والأتمتة والحوسبة وربط الشبكات المعلوماتية بين المؤسسات التربوية والأكاديمية والبحثية والاندماج مع شبكة المعلومات العالمية، هذه الأمور التي أصبحت من حقائق الواقع المعاصرة تُشكّل ضغطاً متزايداً على الثقافة العلمية واللغة العربية، لكنها لا تناقض التعريب والعوربة المتفاعلة المتطورة كما يعتقد البعض، بل تُشكّل هذه الضغوط المتزايدة تحدياً كبيراً وحافزاً قوياً نحو التعريب لتعميم فوائد العولمة المعلوماتية. فالحوسبة ليست معادلاً موضوعياً للتغريب، فأغلب الحواسيب في العالم تُصنع خارج إطار الغرب، بل إنَّ الصين هي التي تصنع حتى حواسيب وزارة الدفاع الأمريكية، والهند تسيطر على نسبة عالية من برمجيات الحواسيب في العالم، فالحوسبة قد تسهّل عملية التعريب والعوربة إن

وجدت الإرادة السياسية الفاعلة والتهيئة المجتمعية المبرمجة التي تجعل التعريب جزءاً مهماً من مفاصل شبكة المعلومات العالمية.

أهمية القرار السياسي:

ذكر الدكتور الألمعي زكي مبارك بصراحته الجارحة المعهودة أن أساتذة العلوم في الجامعات المصرية قدَّموا كل المبررات لتدريس العلوم بغير العربية حتى تناهى إلى سمعهم تلميحات وزير التعليم العالي إلى أن اللغة العربية غير عاجزة عن تأدية المعاني العلمية، عندها تسابق الأساتذة إلى الاستجابة إلى التعريب والترجمة بكلِّ هِمَّةٍ.

فالقرار السياسي المؤكّد على أهمية التعريب إن جاء بشكل جاد فإنه تأكيد فعلي على ما هو وارد في كل دساتير البلاد العربية ومقررات جامعة الدول العربية بالإضافةِ إلى الإشارات المتكررة عن أهمية التعريب في برامج وفعاليات أغلب الأحزاب الوطنية والإسلامية في أغلب الدول العربية ومنها الأردن. فالقرار السياسي في هذا الشأن ذو أهمية كبيرة سياسياً واجتماعياً واقتصادياً وأكاديمياً، ثم إنَّ هذا القرار بذاته قبل ترجمته إلى برامج وقوانين وتعليمات وإجراءات سيكون شرارة البدء بالعمل عند كل المشكِّكين والمتردِّدين والمتخوِّفين من الفشل في التعريب.

وأهمية هذا القرار السياسي المجتمعي تُذكّر بالتساؤل المرير الذي نفثه الأستاذ الدكتور عبد الكريم خليفة في دمشق، وأشعل النار في صدر الدكتور صالح بلعيد ليخرج على شكل كتاب، هذا التساؤل: لماذا نجح القرار السياسي في

الفيتنام وفشل في الجزائر لتحقيق التعريب ؟!، وقد أصبح هذا التساؤل المرير الذي يصدّع الوعي يشمل الوطن العربي كله تقريباً، فحتى الجزيرة العربية معين العربية الأول أصبحت بحاجة لتعريب لوقف طوفان التغريب الأكاديمي وغيره، لا سيما في المدارس والجامعات. فالدكتور صالح بلعيد الذي لم يكن مقتنعاً بأهمية القرار السياسي اعتقاداً منه في السابق أن الحراك الفكري والسياسي والاجتماعي في المجتمع يمكنه أن يولّد قراراً مجتمعياً يصدر من القاعدة الاجتماعية نحو التعريب، ولا ينتظر قرار صُنّاع القرار، لكنه بعد مرارة التجربة، واستمرار مبررات عدم الإيمان بمبدأ التعريب عند البعض، وغياب إرادة الفعل عند البعض الآخر، والتردد المثبّط عند فريق ثالث، والتريث المتلكئ عند البعض من جماعة مناصرة التعريب، واستمرار الخوف من الفشل حتى عند المتحمسين للتعريب، وتزايد مُحفّزات التأجيل والتريث والتردد والخوف من فشل المحاولة، أطلق صرخته حول ضرورة القرار السياسي قائلاً "أما آن لنا أن ننادي باستصدار القرار السياسي العربي حول هذه المسألة (التعريب)، كي نجتاز هذه الصعوبات المفتعلة ونلحق الركب مثلنا مثل العالم، ولا نبقى في الجدل، والعالم يتطور ويتقدم ولا ينتظر المجادلين".

هنا يمكننا أن نقلّب هذا القرار السياسي على وجوهه، فهل القرار السياسي العربي المشترك ممكن راهناً ومستقبلاً، وهل القرارات السياسية العربية المفردة ممكنة ومؤثرة ؟ وهل من الممكن أن يكون لجامعة الدول العربية دور مهم وفاعل في تحفيز أو تنسيق مثل هذه القرارات؟ وهل يمكن للأردن أن يكون مبادراً في اتخاذ هذا القرار التاريخي رغم الهجمة التغريبية الكاسحة؟ وإن اتخذ هذا القرار هل

يمكن لعمان أن تصبح عاصمة اللغة العربية من أجل الأمة العربية وإرث الثورة العربية الكبرى؟.

لكن مع الأسف الشديد أننا نفاجأ كثيراً بأن المتحّمسين ظاهرياً للتعريب أو أشباه المتحمّسين عندما يصل الواحد منهم إلى أيٍّ من مواقع صنع القرار في الجامعة او الحكومة يصيبه مس سحري من الحياد السلبي، أو ينقلب على عقبيه ضد التعريب صراحة لكي يحظى برضا حزب التغريب الذي يتعاظم دوره في مفاصل الدولة الأردنية في السنين الأخيرة بشكلٍ يهدِّد هوية الوطن ويفقده بوصلة المستقبل معرفياً وثقافياً وبالتالي سياسياً. وهذا الأمر بحاجة لوقفة فكرية أكاديمية سياسية جريئة تسمي الأشياء بأسمائها دون مواربة أو تغطية أو مجاملة أو خشية...

فالتعريب الغريب في الجامعات الأردنية كان بين مد وجزر لسنين حتى حلت العولمة المتأمركة بديارنا، فأصبح التعريب الغريب بين ظهرانينا بين جزر وجزر أجزر منه، إن لم يتداركنا الله سبحانه بروح منه فتتشكل عندنا الإرادة المجتمعيّة والإرادة السياسية ليترجم ذلك إلى إرادة أكاديمية شاملة تُنهي غربة التعريب بالقرار السياسي والمجتمعي والأكاديمي الحاسم الذي ينهض بالواقع بدلاً من الاستسلام لبراثن تشوهات الواقع...

أهمية اللغة العربية في تعليم العلوم:

اللغة العربية الحية جذورها غارقة في القدم فهي الأخت الكبرى لأم اللغات العروبية (السامية)، أو هي أمها جميعاً من أكادية إلى بابلية إلى أشورية إلى

آرامية إلى كنعانية وحتى الهيروغليفية التي هي عروبية في جذرها الأقدم. وبذلك فإن اللغة العربية الأم هي الحاملة الأولى بهذه الجذور العريقة لمشعل الحضارة الإنسانية لخمسة آلاف عام على أقل تقدير.

فبها ومن خلالها تأنسن الإنسان ونزلت على الأرض الأديان. وهذه اللغة السرمدية الشباب بإذن ربها هي التي حملت عصارة الحضارة الإنسانية لخمسة قرون زمن أوج الحضارة العربية الإسلامية، وبقيت بعدها المؤثر الرئيسي في الحضارة الإنسانية لخمسة قرون أخرى تقريباً.

هذه اللغة المعجزة يتقاعس أهلها عن خدمتها طمعاً في رضا مستعمر الأمس ومستعمر اليوم، ويصمونها صراحة أو ضمناً بالعجز والعقم في شؤون العلم والعمل والتجارة بينما اللغة العبرية هذه اللهجة الكنعانية البائدة المتيبسة المفاصل المنطلقة حديثاً من أخلاط من أزمان عدة وأماكن شتى، هذه اللغة الهجين تصبح لغة علم وتقانة وعمل مخدومة بكل قوة، ولغتنا العربية لغة القرآن ووعاء الحضارة الإنسانية، والمُحفّز الأول للإبداع في العلم والتقانة لقرون عدة، لا نخجل من الإعراض عنها في شأننا العلمي والتقاني، كأن العلم والتقانة أردية (إفرنجية) نرتديهما زينة ووظيفة وكفى، وكيف نبدع فيهما ونحن لم نبنِ أنفسنا داخلياً بهما عبر لغتنا، وإن بقينا هكذا فإننا نصبح كالغراب ننسى مشيتنا ولا نتقن مشية غيرنا.

لغتنا العربية هي أمتنا العربية:

يقول صاحب مشعل العربية الذي لا يكل ولا يمل ولا تداخله وساوس اليأس، يقول الأستاذ الدكتور عبد الكريم خليفة في كتابه اللغة العربية والتعريب في

العصر الحديث الصادر في عام 1987"وإننا على ثقة بأن اللغة العربية وليس لنا لغة سوى لغة القرآن، ستكون في المستقبل القريب، وقبل نهاية هذا القرن– إن شاء الله – لغة التعليم في جميع مراحله وفي جميع مجالاته، وأن تكون لغة التعليم الجامعي والبحث العلمي، ولا سبيل لأمتنا كي تلحق بركب الحضارة وأن تُشارك مشاركة أصيلة في بناء هذه الحضارة إلا من خلال لغتها تلك اللغة التي تُمثّل الأساس الروحي والفكري الذي تقوم عليه وحدة هذه الأُمة، فأمتنا العربية هي لغتنا العربية الفصحى، ولغتنا العربية هي أمتنا، وبالتالي هي أساس نهضة أمتنا ووحدتها" فأمتنا هي لغتنا ولغتنا هي أمتنا، نحن هنا أمام إبداع لغوي ومعرفي في هذا الإيجاز الممثل لحقيقة الترابط بين هذه الأمة ولغتها، وكما أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد قال في شأن من لحن في العربية "أرشدوا أخاكم فقد ضل"، فإننا نرى أن الأمر ينطبق على التعليم والتعليم العالي العلمي والتقني في الأردن والكثير من الدول العربية، فلا بد من أن نقول للقائمين على أمر هذا التعليم ليرعووا عن ضلالهم اللغوي:

أرشدوا تعليمكم العالي فقد ضل ضلالاً مبيناً في استعمال غير لغتنا في التدريس والبحث العلمي، فهذا أكبر لحن نشاز في تاريخ أي أمة، فكيف بأمة صلب تاريخها اللغة وما يتصل بها من نصوص لا سيما نصها الأكبر القرآن الكريم! فالقرآن الكريم بفضل رب العزة أحدث في اللغة العربية قانوناً يُخالف ما يحصل في لغات الأرض كافة، فهي بفضله تتجه دائماً نحو التوحد والاتساع مهما كانت أسباب التفتيت والاندثار السياسية والاجتماعية والفكرية والعقائدية.

هل اللغة العربية عائق في العلم والتقانة؟

هل اللغة العربية عائق في التعليم الجامعي للعلوم الأساسية والهندسية والطبية والزراعية؟ الإجابة على هذا السؤال الكبير صعبة حتى عند التغريبيين المتنفذين، فهم لا ينطقون بنعم إجابة على هذا السؤال، لكن يفعلون ويقررون كل ما تدلل عليه لفظة نعم، أما المترددون فهم حائرون لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، وبذلك فإن إجابتهم هي (لعم) بين لا ونعم، ونحن مقتولون في مقام الـ(لعم) في شأننا كله...

لكن للحق والحقيقة الموضوعية المعاشة في قاعات المحاضرات وفي ردهات الدرس أن اللغة الإنجليزية هي العائق الحقيقي في هذا الشأن، فأغلب المحاضرات بلغة عربية مكسَّرة تشيع في أكنافها بعض المصطلحات الإنجليزية المنطوقة بلكنة ثقيلة يقشعرُّ لها بدن شكسبير في قبره. فمعظم أساتذتنا في الكليات العلمية والهندسية والطبية والزراعية لا يتقنون الإنجليزية، وبعضهم من خريجي الجامعات غير الناطقة بالإنجليزية، مستواهم في اللغة الإنجليزية أقل من مستوى طلبتهم، وكم شكا لي الطلبة من هؤلاء الذين لغتهم الأم العربية ودرسوا بغير الإنجليزية لكنهم مضطرون للتدريس بها، وهم غالباً نسوا حتى ما تلقوه منها في المدرسة، وذلك أثناء دراستهم في الجامعة، لأن لغتهم الثانية أصبحت على سبيل المثال الألمانية أو الفرنسية أو الرومانية أو الروسية، بينما كانت في المدرسة الإنجليزية، فهم بذلك في حيرة لغوية تامة يندلق سوؤها على رؤوس الطلبة الذين يعانون أصلاً من محدودية فهمهم للعلم باللغة الإنجليزية حتى ولو كان المحاضر متقناً لها، فكيف وهو يتأتئ بها ويجمجم ويحمحم دون أن يبين، إلا عن لفظ مضطرب حزين، لذلك تقع الكارثة المتكررة صباحاً ومساءً في جامعاتنا المتكاثرة،

فالأستاذ يلقي محاضراته الركيكة بلغة مختلطة ما بين العامية والإنجليزية التي لا يتقنها، وأحيانا لا يعرفها إلى طلبة غالباً لا يعرفون الإنجليزية إلا لماماً ، فكيف يا رعاكم الله يكون التوصيل والتواصل في هذا الشأن العلمي المهم؟!. وهذا التخليط اللغوي المغوِّي نبّه له الكثيرون من دعاة التعريب، لكنه ما زال يتسع ويتعمق، فنسمعه ونحن نمر في الردهات ينبعث دخانه من قاعات المحاضرات على شكل نشاز لغوي يكاد يزلزل جدران تلك القاعات بإيقاع متنافر تقشعر له الأبدان، ومع ذلك يصبر أصحاب هذه التخاليط اللغوية المرعبة على التغريب، ويقاومون التعريب صراحة أو من وراء حجاب، ويصرون على أن اللغة العربية هي العائق بينما تخاليطهم المفككة هي جسر التواصل والفهم والإبداع والتقدم!.

تدني مستوى طلبة الجامعة عندنا :

من الحقائق الظاهرة للعيان والتي تحتاج للمزيد من البحث والتحليل للوقوف على أسبابها كاملة وتوصيف طرائق الخروج من وهدتها، هي تدني مستويات الطلبة المقبولين في الجامعات الأُردنية، وتدني مستوى تحصيل طلبة الجامعات الأردنية، وبالتالي تدني مستويات مخرجات العملية التعليمية عندنا برمَّتها. فالضغط الاجتماعي والسياسي فتح خرقاً واسعاً في القبولات فاتسع الخرق على الراقع، فكانت لذلك آثارٌ سلبية واضحة في العملية التعليمية خاصة لدى الدارسين باللغة الإنجليزية فأغلبهم يعانون الأَمرَّيْنِ وخاصة طلبة الأرياف والقرى النائية، فكم شكوا لي مما يعانون سواء في جامعة مؤتة أو الجامعة الأردنية، قائلين: ما هذا التعذيب يا دكتور والله إنَّنا نقضي ليلة كاملة أحياناً في صفحة واحدة، ولا نخرج منها بشيء، أما الطلبة الآخرون فهم يعانون أيضاً، لكن يكابرون

ويدّعون، رغم أنهم يهربون إلى ملخصات الأساتذة والحلول المجتزأة والمحاضرات العامية اللغة المختلطة بنثار من الأسماء والمصطلحات الإنجليزية المنطوقة بلكنة عامية عمياء تصيب (تي أس. اليوت) بلوثة هوجاء في قبره تُطلق من فمه قصيدة أكثر يباباً من الأرض اليباب.

لغة أبحاثنا إنجليزيتها ركيكة:

أبحاثنا غالباً مكتوبة بلغة إنجليزية ضعيفة أو مفككة أو رديئة، حتى نحن الذين قضينا سنين من الطلب في أمريكا، فكيف بزملائنا الذين تلقوا تعليمهم في جامعات ناطقة بغير الإنجليزية، وبعضها من أقوى جامعات الدنيا في ألمانيا وفرنسا واليابان وهولندا وغيرها، وأعداد هؤلاء ومن هم على شاكلتهم في تزايد مستمر، ولا ضير لو ذكرت لكم هنا تجربة شخصية حركت كوامن الذات عندي، فلقد حكّمت بحثاً رائعاً في موضوعه ومحتواه المعرفي ونتائجه الأصيلة لدكتور يبدو أنه متخرِّج في جامعة ألمانية لشيوع المراجع الألمانية في البحث، لكن مع الأسف الشديد كان البحث مكتوباً بلغة إنجليزية ليست من الإنجليزية بشيء إلا في حروفها فقط، كان يمكنني أن أرفض البحث لأنني كنت أنجّم على المعاني تنجيماً اعتماداً على الرسومات والجداول الرائعة، لكنني لم يطاوعني قلبي لأن البحث قادم من جامعة فلسطينية فاضطررت لإعادة كتابته تقريباً، فلماذا يضطر باحث بحثه رائع النتائج إلى كل هذه المعاناة المهلكة لولا أسر الاستسلام لسحر اللغة الإنجليزية؟!

كما أن أغلب المستغربين يؤكدون بكل ارتياح أن الإنجليزية أكثر تناسباً مع العلم الحديث، متناسين أثر الاستعمال في البحث والتدريس والإعلام العلمي

وغيرها من سبل الاستعمال الحي المحيي في تنمية اللغة وتوسعتها وتسهيل طرائق استعمالها حتى على غير أهلها، بينما لغتنا العربية لغة القرآن الكريم ولغة حضارتنا ووعينا بأنفسنا وهويتنا ولغة العلم العالمي لعشرة قرون، هذه اللغة العظيمة بذاتها وبأهميتها لوجداننا وعقولنا وتقدمنا حاضراً ومستقبلاً لا تلقى منا إلا الإعراض والإهمال حكّاماً ومحكومين، مدرِّسين وباحثين ومسؤولين.

فالعلم والتقانة ليسا قشوراً نرتديهما بلغتنا أو بلغة غيرنا في البحث العلمي، العلم والتقانة هما أساس الفكر الحديث، فإن أردنا دوراً لنا في هذا الفكر الإنساني، فلا بد من تمثُّل العلم والتقانة بلغتنا ونشرهما في القطاعات الشَّعبيّة كافةً لكي تحصل التبيئة التامة التي تؤدي إلى الإبداعية الذاتية.

فهل نتوقَّعُ تنميةً بشريةً ومن ثم تنمية اقتصادية مستدامة دون لغتنا في التدريس والبحث، هل نتوقع إبداعاً ومن ثم تقدماً حقيقياً دون لغتنا، وهل نتوقع بلورة حضارية لهويتنا ولوجودنا على هذا الكوكب كأمة حرة دون لغتنا الأوسع والأحكم والأكثر إشراقاً من لغة غيرنا لو وجدت من يخدمونها كما وجدت اللغات الأخرى، لكن لغتنا كحمزة بن عبد المطلب لا بواكي لها.

وليس من باب الإساءة لأيٍّ كان، أو نشر الغسيل على الجدران، فإن غالبية أساتذتنا الكرام حتى خريجي أمريكا وبريطانيا محصولهم اللغوي اللغوي وليس اللغوي الادعائي محدود جداً، وقدرتهم على استعمال هذا المحصول المحدود أكثر تحديداً، ولا تخفى على أحد رسائل الماجستير والدكتوراه التي كتبت وتكتب لهكذا أساتذة لضعفهم في اللغة الإنجليزية، بعض هؤلاء الأساتذة هم من قادة مناهضة التعريب من باب التفاخر بالانتماء للإنجليزية لغة أمريكا سيدة العصر، رغم أنهم ما زالوا لا يتقنونها لا قولاً ولا كتابة، وأنا أعرفهم بأسمائهم، وسيمائهم ومن أصبح منهم رئيساً أو نائباً لرئيس أو وزيراً أو مسؤولاً، فقد تمرّس على التشدق

ببعض الألفاظ الإنجليزية في الجلسات العامة والمتخصصة من باب الزينة وعرض البضاعة المزجاة، لكنه يعلم في قرارة نفسه أن بينه وبين الإنجليزية حجاباً، لكن المنافحة عنها هو من باب مستلزمات المنصب المتحقق أو المأمول تحققه.

صعوبة اللغة الإنجليزية :

اللغة الإنجليزية ليست أسهل بنيوياً أو اشتقاقياً أو دلالياً من اللغة العربية المحبوكة رغم اتساع مصادرها زمانياً ومكانياً. بل اللغة الإنجليزية هي المثقلة حتى أذنيها بالشذوذ المغرق في قواعدها وتصريفاتها وقد جاء كمٌّ هائل من أسمائها وأفعالها ولواصقها من لغات شتى، مما جعل صقلها وتوحيدها عملاً سياسياً وقصرياً أحياناً، ولم يأتِ عفوياً أو طبيعياً، وبقايا فرقتها الداخلية ما زالت متفشيَّة في لحمتها وسداها، وأغلب مصطلحاتها العلمية هي من غيرها، فإما أن تكون مستمدة من اللغة اليونانية أو اللاتينية وحتى من اللغة العربية في أيامها الزاهرة، لكن احتلالات أهلها أو الناطقين بها لأجزاء كثيرة من العالم وخدمتهم لها بالغالي والنفيس وطّأا أكناف شذوذها، وقلّلا من عوار تناقضاتها الداخلية، وجعلاها تبدو للوهلة الأُولى أَبسط من اللغة العربية الأكثر إحكاماً واتساقاً وشمولاً وامتداداً منها لو توافر لها من يخدمونها بعشر معشار ما نالته اللغة الإنجليزية الهجين، من خدمات كبيرة وتحليلات لسانية واسعة، وموسوعات تاريخية متنامية للمفردة والعبارة والمصطلح، وليس هذا مقام المفاضلة بين اللغتين، لكن أوردت ذلك للرد البسيط على الذين يفضلون الإنجليزية على العربية على اعتبار أنها أَبسط من العربية وأشمل.

أهمية اللغة الإنجليزية:

رغم ذلك لا ننكر نحن دعاة التعريب الأكاديمي والعوربة الثقافية والحضارية والاجتماعية أن اللغة الإنجليزية أَصبحت القاسم المشترك لأغلب ما ينتج من علم ومعرفة وبحث وصناعة في العالم أجمع تقريباً،فهي اللغة الثانية لأي عالم ألماني أو فرنسي أو روسي أو صيني أو ياباني أو هندي أو عربي، إذ إنها النافذة الكبرى التي يمكن الإطلال منها على العالم بكل مفاصله، فإتقانها للاطلاع الصائب من خلالها ضرورة حضارية ووجودية، لكن اللغة العربية هي بيتنا بكل أساسياته وأرضياته وجدرانه وسقفه، فهل يجوز لنا أن نسمح للنافذة مهما كبرت أن تصبح بديلاً عن بيتنا الحقيقي الذي هو لغتنا ووجودنا وهويتنا، فالبيت الجميل ينمو جمالياً بجمال نوافذه، لكن لا يجوز لنافذة واحدة مهما عظم دورها أن تكون بديلاً عن البيت نفسه .

ضرورة الإنجليزية لطلبة الدراسات العليا:

يحتج أنصار التغريب بأن طلبتنا الذين سيواصلون دراساتهم العليا في العلوم الأساسية والطب والهندسة بحاجة ماسة للغة الإنجليزية لتسهيل دراستهم تلك. وهذا احتجاج متهالك لأن طلبة الدراسات العليا لا يمثّلون إلا نسبة ضئيلة من طلبة دراسات الشهادة الأولى، ثم إنَّ دراستهم باللغة الإنجليزية قبل دخولهم في دراساتهم العليا لا ينمي لغتهم الإنجليزية إلا بشكل محدود جداً، لأن أغلب تركيز طلبتنا على ما ينقلونه من تخاليط أساتذتهم، أما الكتب المقررة في اللغة الإنجليزية فيفرون منها بكل السبل، لكن لو درس الطالب المتطلّع للدراسات العليا الإنجليزية بطريقة منهجية، فإن النتائج ستكون مختلفة، مع العلم بأن طالب الدراسات العليا ملزم بتعلم –على الأقل– لغة عالمية أخرى غير العربية للاطلاع ومتابعة

المستجدات المتسارعة في مجال تخصصه الدقيق والتخصصات المجاورة، وكذلك فإن الأصل أن مستوى هؤلاء الطلبة العقلي والنفسي واهتمامهم العلمي كفيل بأن يجعلهم يتقنون اللغة الثانية حتى بعد إنهائهم لشهادتهم.

لكن للحق والحقيقة وبالمشاهدة المتكررة أن الفائدة المحدودة المتحققة من دراسة طالب الدراسات العليا لشهادته الأولى باللغة الإنجليزية أقل ألف مرة من المضرة المؤكدة التي تقع على غالبية الطلبة الآخرين الأقل اهتماماً والأقل بمستواهم التعليمي من زملائهم الذين ينوون متابعة دراساتهم العليا، فهل يجوز التفريط بلغة التحصيل عند الكل، من أجل فائدة البعض المحدودة جداً.

مجازية اللغة الإنجليزية العلمية:

من الحقائق المؤكدة المتكررة التي لا تحتاج لكبير بحث وتنقير أن اللغة العلمية الأكاديمية والموازية لها علمياً وتقانياً وبحثياً أصبحت مركبة ومضمّخة بالإبداع التصويري والمجاز اللغوي. وأثنّي هنا وأؤكد على ما ورد مراراً على لسان الأستاذ الدكتور عادل جرار حول تعقّد التعبير في اللغة الإنجليزية في الكتب العلمية الحديثة، ولا سيما المقررة لطلبة الجامعة، ومن تجربتي الشخصية فإن تنامي المجاز المركّب والإبداعية اللغوية في الكثير من الكتب العلمية في اللغة الإنجليزية وسّع وعمَّق من طرائق مصالحتي مع العلم والتقانة، بعد أن كنت لسنين من الهاربين منهما نفسياً رغم تخصصي فيهما إلى مجازات اللغة والأدب والثقافة. لكن العلم والتقانة أَصبحا يكتبان بلغة تكاد تجعل أداة التوصيل غاية جمالية بذاتها، لذا أصبحت أحياناً أشعر أنني لا أقرأ فيزياء او كيمياء أو ميكانيكيا موائع أو هيدروليكيا أو هيدرولوجيا، وإنما أقرأ نصوصاً، نعم نصوصاً إنجليزية غاية في

الدقة العلمية والإبداعية والحيوية تتناول هذه الموضوعات، وهذا الأمر الجميل يجعل التدريس باللغة الإنجليزية أو غيرها غاية في الصعوبة على طلبتنا والكثير من أساتذتنا أيضاً، ففهم الطلبة القليلي المحصول في اللغة أصلاً أصبح بسبب تعقّد ومجازية اللغة الإنجليزية العلمية محدوداً جداً وأحياناً معدوماً، وأغلبنا نعاني من توصيل مثل هذه اللغة للطلبة، لأن اللغة هنا حتى وهي توصل العلم والتقانة ليست قشرة أو وسيلة بل غاية تجعل النص العلمي رائقاً ومبدعاً، كالنصوص العلمية العربية في أوج حضارتنا الزاهرة، مثل نصوص العلاّمة ابن سينا في النفس والطب، ونصوص غيره من علمائنا الآخرين، وهنا لا عجب أبداً أن يقضي بعض طلبتنا ليلة كاملة في دراسة صفحة واحدة، ولا تسعفهم كل قواميس الدنيا في المعاني الدقيقة المقصودة، لأن الانزياح اللغوي قد لا يكون في اللفظة فقط، وإنما في تركيب الجملة أو في تراكيب الجمل، أي في النظم اللغوي الذي يحدِّد معنى المعنى كما ذكر عبد القاهر الجرجاني في نظريته الرائدة في العالم أجمع في شأن معنى المعنى المنبثق من النظم، وهكذا هو الأمر في صعوبة الإنجليزية العلمية المنزاحة بشكل مجازي رائع يفقد طلبتنا القدرة على الفهم و التوصيل كما يجب.

الخجل من مناصرة التغريب:

يذكر الأُستاذ الدكتور عادل جرار أحد أبرز رواد التعريب الأكاديمي في الأردن أنه عندما دعته كلية الآداب في الجامعة الأردنية للمشاركة في ندوة حول تعريب التعليم في يومها العلمي لم تجد أحداً من الأغلبية الصامتة أو الأقلية التغريبية يقبل في المشاركة كمناقض للتعريب، ألا يعني هذا بكل بساطة أن

الاضطرار للتدريس باللغة الإنجليزية مخجل، ولا أحد يقبل بالدفاع عنه صراحة حتى من أنصار التغريب في السر والعلن.

هنا تتولّد تساؤلات جديرة بالتفكّر بها قبل الإجابة الصريحة عليها: لماذا نفعل ونصمت على فعل ما نخجل من مناصرته صراحة؟ لماذا نعطي لأنفسنا الوصاية على مجتمعنا علمياً، فنقدِّم له العلم بغير لغته، ثم نخجل من التصريح بذلك له، لماذا نخجل من التصريح بهزيمتنا الداخلية أمام التغريب والعولمة والأَمركة، ثم لا نخجل من العمل الدؤوب على تكريس مستلزمات تلك الهزيمة الكاسحة في أعماق أدمغة طلبتنا.

أثر العربية توليداً واصطلاحاً:

رغم الأهمية البالغة للنحت والاقتراض في العربية، إلا أن الاشتقاق هو محور التوليد ثم يتبعه في ذلك المجاز، فكل لفظة في اللغة العربية هي عائلة أو قبيلة من الاشتقاقات المشتركة في أصلها المصدري، مما يجعل اللغة العربية من أثرى لغات الأرض وأقدرها على التوليد الذاتي لكل ما تحتاجه العلوم والتقنيات، بينما ثراء الإنجليزية المدعى في المصطلحات أغلبه نحت واقتراض مما يجعل الغالبية الساحقة للمصطلحات الإنجليزية الحديثة مجهولة لدى المواطن العادي الناطق بالإنجليزية، لأن هذه المصطلحات منحوتة أو مقترضة من لغات أخرى حية أو ميتة، بينما الاشتقاق في العربية هو محور التوالد الخلاق المثري.

أما المجاز فهو استعمال اللفظ في غير ما وضع له، مع قرينة تمنع من إرادة المعنى الأصلي، وهو شائع في كل لغات الأرض في توليد المصطلحات وتقريب فهم المفاهيم الجديدة، لكنه في اللغة العربية له ميدان رحب جعل البعض

يتوهم أن اللغة العربية لغة شاعرية غالباً، وهذا خلاف الواقع على أهمية شاعريتها في تنامي الترميز فيها.

فلا بد من ملاحظة أن الكثير من الحقائق اللغوية كانت مجازات لغوية، فالمجاز والخيال اللغويان هما طاقة هائلة في أي لغة تُكسبها حيوية ترميزية وتجدداً إن وجدت رجالا ونساءً من مسؤولين وباحثين وأكاديميين ومدرسين يعملون بجد لتحويل الطاقة المكتنزة في شعرية اللغة العربية إلى لغة العلم والتقانة الحية المحيية من خلال الاستعمال الخلَّاق والاصطلاح العلمي الثري المثري بترميزه الخلَّاق .

اللغة هي التفكير والإبداع:

يرى أشكرافت (Ashcraft, 1998) أن من أهم خصائص أي لغة المرونة الترميزية (Flexibility of symbols) على أن الارتباط بين الرموز والمعاني والمفاهيم اصطلاحية وليست حتمية، مما يمنح اللغة مرونة تلقائية في التعبير عن الأشياء واشتقاق الأسماء الجديدة للمخترعات الجديدة، أو ابتكار بعض هذه الأسماء.

وقد أجمع علماء علم النفس اللُّغوي على أن هنالك علاقة عميقة بين التفكير واللغة المفكَّر بها، فالبعض يرى أن التفكير واللغة وجهان لعملة واحدة، والبعض منهم يرى أن التفكير يصوغ اللغة ويؤثر فيها، والبعض يرى أن اللغة هي التي تصوغ الفكر وتؤثر به، والبعض يرى أن هنالك تبادلاً حيويّاً بين اللغة والتفكير ولا سيما التفكير الإبداعي. فهل يمكن تنمية التفكير العلمي الأصيل

وتوسعة القدرة على الابتكار في التقانة وتبيئة العلم والتقانة في أي أمة دون لغة الأمة رغم الإجماع على عمق العلاقة السببية أو التبادلية أو هما معاً بين التفكير واللغة؟ فإلى متى نجرّ أمتنا ووطننا إلى الضياع علمياً وتقنياً وحضارياً وتنموياً ونحن نحسب أننا نحسن صنعاً...؟!.

التأليف الإبداعي والترجمة بتصرف:

البيئة الطبيعية والاجتماعية والاقتصادية لها أكبر الأثر في تبيئة وتشكّل الموضوعات الدراسية الغربية المثقلة بمشكلات بيئاتها والحلول التي تقدمها هذه البيئات لمشكلاتها. وبحكم التخصص أقدم لكم المثال الآتي، فالهيدرولوجيا التي تُدرّسها لطلبة الهندسة كتبها المنهجية الإنجليزية أو المترجمة عنها تقوم في أساسها على تضخيم دور الفيضان في الدراسة، لكن الفيضان ليس أهم مشكلاتنا المائية التي تقوم على الجدب والقحط والجفاف، أي تكرارية النقص في المياه وليست الزيادة فيها، كما تصر على ذلك المناهج المستوردة .

فكل علم تطبيقي بنيته المعرفية والتقانية وأمثلته التطبيقية هي نتاج بيئته، وهذا يؤدي بطالب العلم عندنا المُغرق بهذه الكتب المستوردة ككتب مقررة أن تحصل له لاشعورياً قطيعة علمية تطبيقية مع بيئته سواء بشأن مشكلاتها أو الحلول المقدَّمة لها، وهذا يحدو بي لأن أدعو للتأليف الإبداعي في العلوم التطبيقية بما يهم بيئتنا، وليس التأليف الاتباعي الغارق في مشكلات غيرنا، لكننا حتى في تأليفاتنا التلفيقية نستعمل أمثلتهم، لأن عيوننا بالتغريب المعرفي فقدت القدرة على النظر إلى الواقع المعاش، بل إنني أميل إلى التأليف المتفاعل مع بيئته أكثر من الترجمة المثقلة ببيئتها الأصلية.

وهنا أدعو لما قد يزعج الأَجلاّء من العلماء، وهو الترجمة بتصرّف يناسب بيئتنا العربية إن اضطررنا للترجمة بدلاً من التأليف الإبداعي، وهذا التصرّف الذي نأخذ الإذن بعمله من المؤلف الغربي يُنقّي العمل الأصلي مما يثقل كاهله من أمثلة بيئته الأصلية، ولا ضير لو أشرنا إلى حقيقة تغيب عن الكثيرين حول ترجمتنا العربية القديمة، فأغلب المستشرقين ومن تبعهم منا بإساءةٍ إلى يوم الدين يميلون إلى أن العرب في عصورهم الزاهرة ترجموا الفكر والعلم اليوناني والأدب الفارسي والحكمة والرياضيات الهندية، ترجموا هذه الثقافات وغيرها ليس كما هي تماماً بل بصورة محوّرة، والبعض يقولون مشوهة، لأن العرب لم يفهموا ما ترجموا، ولكن وليس من باب التعصب الأعمى لحضارتنا التي علّمت العالم أجمع فإني أكاد أجزم أن أغلب التحوير كان مقصوداً ليتناسب النص المترجم مع السياق الثقافي للمتلقي، فلكل مقام مقال في حضارتنا، وهو مقام المتلقي، وليس مقام الملقي، مقام الحضارة الهاضمة، وليس مقام أنساق الحضارات المهضومة..

وفي هذا قد يختلف معي الكثير من العلماء الأَجلاَّء المدققِّين بإصرارهم على الأمانة العلمية المطلقة في الترجمة وميلي إلى إعطاء رخصة واسعة لأن للضرورات العلمية والتعليمية أحكامها، لذا أرى أن الحرفية الشمولية للترجمة التقانية قد تضر بالترجمة ذاتها وبالطالب الذي يتلَّقى هذه الترجمة، وبالمنهاج ذاته الذي ينحرف عن متطلبات مجتمعه وبيئته، وبذلك يصبح طلبتنا كأنهم كائنات مستنبتة، وطنها الروحي التقاني غير وطنها الحقيقي.

فالعلم التطبيقي في الغرب والشرق، في أمريكا وبريطانيا والهند واليابان يُدرَّس ويُبحث ويُنشر انطلاقاً من حاجات المجتمع المُلحَّة على اعتبار أن ركائز

الجامعات أربع: التعليم والبحث العلمي وخدمة المجتمع والإنتاج الذي يربط البحث العلمي بخدمة المجتمع، وكل هذه الأمور المتصلة بالجامعات منطلقها المجتمع، فإن لم نؤلف بشكل إبداعي ينبثق من بيئتنا وليس بشكل اتباعي يبحث مشكلات غيرنا، وإن لم نترجم بتصرفٍ أمينٍ، فإن مشكلات وحاجيات تلك المجتمعات المصدّرة للكتب المنهجية ستستمر في إغراق مناهجنا التعليمية بدرجة أكبر بكثير مما قد يتصوره غير المتخصصين، أو أكثر مما يمكن أن يعيه المتخصصون القاطنون في أبراجهم العاجية (بل الكرتونية) من الذين يحسبون الجامعات جزراً معرفية معزولة عن مجتمعها، أو زوائد دودية مُلصقة اعتباطاً بمجتمعاتها.

ومن أهم مشكلات الترجمة وخاصة الحرفية في العلوم التطبيقية أنه تمر أحياناً فترة زمنية غير قليلة بين ظهور الكتب في لغاتها الأصلية وبين ترجمتها إلى اللغة العربية لتصبح جزءاً من المراجع أو المقررات الجامعية، وأحياناً تظهر ترجمة طبعة لكتاب منهجي ككتاب علم التوازن (الاستاتيكا) بينما تكون الطبعة المزيدة أو المنقحة أو المعدّلة تعديلاً تاماً في المطبعة أو خرجت قبل خروج الترجمة العربية للطبعة السابقة، وكلُّنا شاهد على هذا الأمر المتكرر لعدم قدرتنا على مواكبة الترجمة كما تفعل اليابان مثلاً التي تترجم بشكل منهجي بقرار سياسي إداري حكيم، لكي لا يكون بين صدور الكتاب وترجمته إلى اليابانية إلا أشهر قليلة.

التجربة الأردنية في التعريب:

التجربة المجهضة للتعريب في الجامعات الأردنية لم تكن كافية لا زمانياً ولا شمولياً للحكم على الجنين أنه كان أصيلاً أو لقيطاً، ثم إن التعريب يتجاوز التدريس إلى التأليف والترجمة والإبداع وبالتالي التفكير والتعبير والتغيير، وهذه

أمور لا تكون إلا بقرار سياسي، أو بقرارات مجتمعية وأكاديمية مدروسة ومحسوبة، لكن مسنودة بقرار سياسي مُلزم يسمح بالتدرج الإيجابي التصاعدي، وليس التدريج التسويفي، ويسمح بالاستثناءات المؤقتة، وليس الاستثناءات الأكثر اتساعاً من القاعدة، يسمح بالتركيز على كليات بعينها أولاً ككلية العلوم والزراعة مثلاً، أو أقسام بعينها كقسم الهندسة المدنية مثلاً، أو البدء بفروع محدَّدة من هذه الأقسام كهندسة المياه من الهندسة المدنية مثلاً، لكن على أن يكون كل ذلك ضمن خطة شاملة مدروسة ومتدرجة بتصاعد مُضمّخ بالإخلاص، وليس مغلّفاً بالتسويف وذر الرماد في العيون.

هنا نستذكر أن ثمانين من أعضاء هيئة التدريس في جامعة اليرموك تقدَّموا بمشروع لتعريب العلوم من أجل التدريس باللغة العربية واضعين خطة عمل من ستة عشر بنداً، عندما نستذكر ذلك نشعر بالسعادة بأثر رجعي أنه كانت وما زالت في قلوب الأساتذة عندنا حمية للغة والأمة، لكن الآن عند استذكار عدم نفاذ تلك الخطة، وعندما نستشعر الآن صعوبة اجتماع عشرة من أساتذة العلوم والهندسة والطب والزراعة على قلب رجل واحد للشروع بتقديم أي خطة للتعريب هل نشعر بالإحباط التام، هل نستنيم للأمر الواقع ونقول ليس بالإمكان إبداع ما هو أبدع مما كان؟ الجواب لا وألف لا، فالصخرة الصلبة يضربها الحجّار مئة ضربة فتبدو لليائس صامدة متماسكة، لكن بالضربة المئة تنهار الصخرة بضربة واحدة، فهل انهارت الصخرة بالضربة الأخيرة؟ أم بتراكمات كل الضربات السابقة؟ الحق أن لكل ضربة أثرها المحدود الذي قد لا يُرى، لكن الصبر والتكرار يؤدي بكل المعيقات إلى الانهيار حتى لو كانت من أصلب الأحجار.

يقول الأستاذ الدكتور محمود السمرة عن هيئة التدريس الذين تخلّوا عن تجربة التعريب في الأردن بعد سنة من المحاولة المحدودة: " ولو أنهم آمنوا أن التدريس باللغة العربية يعني محافظة الأمة على شخصيتها، وأن أفراد الأمة لا يمكن أن يبدعوا إلا من خلال لغتهم، وأن الطالب الجامعي لا يمكن أن يستوعب المادة استيعاباً دقيقاً إلا من خلال لغته، لهان عندهم أي جهد يمكن أن يقدموه من أجل التعريب" هنا تناول أستاذنا الكبير ثلاثة أبعاد مهمة للتعريب بإيجاز نافذ: البعد الحضاري، والبعد الإبداعي، والبعد التعليمي، وهذه الأبعاد هي أساس كل تطور ونماء وتنمية بشرية واقتصادية، وهي محاور قلَّما يلتفت لها جيوش الموظفين في سلك التدريس الجامعي عندنا، لأن الهمَّ المادي يلتهم جلَّ اهتمامنا وهمتنا، لكن على القلة التي تضطلع بمهمة التنوير والتغيير ألا تيأس من روح العليم القدير.

ويقول مشايخ الطريقة : "من بقي على حالة فقد حاله" وهذه قولة تمثل جوهر الوجود الفيزيائي والكيميائي والبيولوجي والجيولوجي وبالتالي الاجتماعي والفكري والعلمي والروحي، فالتغيير هو القانون الثابت في الوجود كله، فعدم النمو المطرّد انكماش سواء النمو الروحي أو العقلي أو العلمي أو الجسدي، فإن لم يحصل تنامٍ للبناء العلمي للمجتمع كله بالتعريب الواسع النطاق، لا سيما في المعاهد العلمية والجامعات والمراكز البحثية، فإن استشراف المستقبل سيكون شديد القتامة، وعندها سيكون المصير المحتوم، لا سمح الله، هو الهدم والفناء للذاتية والهوية ثم انعدام الوزن والتحوّل إلى ذرات من الهباء في أقصى المحيط الحضاري العالمي ذي المركز المتغول الذي لا يحترم إلا الأقوياء.

دور مجمع اللغة العربية الأردني :

أصدر الأمير عبدالله بن الحسين أمراً بتأسيس مجمع علمي في الأردن في عام 1924، على غرار المجمع العلمي في دمشق الذي أسس في عهد شقيقه الملك فيصل في عام 1919، فكانا وفيين لإرادة أمتهما في النهوض العلمي من خلال التعريب المنظّم والمقنن، وأيضاً كانا وفيين لإرادة والدهما الذي ثار على الطورانيين الذين حاولوا تتريك الأمة العربية بدلاً من تعريب الأمم العثمانية بلغة القرآن الكريم. ولكن لظروفٍ قاهرةٍ انطوى أمر مجمعنا الوليد واستمر بالتنامي المجمع العلمي في دمشق، وانتظرنا إلى ما بعد تعريب الجيش الأردني بأربعة أعوام لتتشكل اللجنة الأردنية للتعريب والترجمة والنشر عام 1961، ثم يتكامل الميلاد المبارك لمجمعنا مجمع اللغة العربية الأردني عام 1976 بجهود أساتذتنا الكبار من الذين أشعل حب الأمة ولغة الأمة وكرامة الأمة نيران حماسهم وما زالت جذوة حماسهم تتوقد رغم تراكم رماد الانتكاسات العربية المتتابعة منذ عقود!

وقد قيل إنَّ مجمعنا العلمي لعام 1924 الذي أراده الملك المؤسس المحب للغة العربية قد ذاب قراره لنقص في المال والرجال، والآن لا نقص في الرجال والحمد لله، فالأردن يفاخر الدنيا بأن بتروله الحقيقي هو ثروته البشرية المنتشرة في كل الدول العربية، وفي مختلف أصقاع الأرض بكل كفاءة واقتدار. أما المال فأمره حقيقة أسهل بكثير مما يظن للوهلة الأولى، فترشيد قليل جداً لبند الضيافة والتنقلات والمياومات في مؤسسات الدولة والجامعات يمكن أن يوفر الملايين الكثيرة للتعريب والترجمة والبحث العلمي المتصل بذلك في الجامعات وفي مجمع اللغة العربية. فلو توفَّر لمجمعنا العتيد مليون دينار سنوياً مع إرادة سياسية إيجابية

تجاه التعريب وأهميته الجوهرية للوطن وللأمة، عندها سيتغيَّر وجه الأردن، وسنرى أردننا الصغير الحجم قائداً بجدارة للأمة العربية بشأن التعريب والترجمة والتأليف والنشر الذي قد يدر دخلاً كبيراً لاحقاً يزيد أضعافاً مضاعفة عما صرف من مال في المراحل الأولى لتسيير العجلة بجدارة. فمجمعنا رغم كل المعيقات والمثبّطات إلا أنه برجاله الرواد الأفذاذ أثبت أنَّ له مكاناً مميزاً في بضع سنين، فأبدع في توجيهه للترجمات الرائدة في الفيزياء والبيولوجيا والكيمياء والرياضيات وغيرها، ولو تيَّسر له الدعم المادي والالتزام الجامعي لحقَّق نقلة نوعية في الأردن والمنطقة.

يقول السيد عبد العزيز بن عبدالله مدير عام مكتب تنسيق التعريب بالرباط في ندوة "التعريب ودوره في تدعيم الوجود العربي والوحدة العربية" في شأن مجمع اللغة العربية الأردني: "بهذا يكون المجمع قد وضع حجر الأساس العلمي لإغناء العربية بالمصطلحات والأفكار العلمية والتقنية معاً، وجعلها تقف على قدم المساواة مع لغات العلم في العالم" كان يمكن لمداميك البنيان أن ترتفع عالياً فوق حجر الأساس المتين الذي وضعه المجمع، لكن الهجمة والتآمر الخارجي والتخاذل والتغرب والتردد حالت دون ذلك، لكن مجمعنا رغم تعاظم الزمن الرديء لم يفقد الأمل في عودة الأمة إلى وعيها مستشعرة مخاطر انحسار لغتها.

دور الأردن المأمول في التعريب:

الأردن بموقعه الجغرافي وبشعبه التفاعلي المعطاء وبقيادته الهاشمية التاريخية يمكنه أن يضطلع بدورٍ بنَّاءٍ وقيادي بشأن التعريب من خلال تواصله الأصيل مع العالمين العربي والإسلامي. فلطالما كانت للدولة الأردنية أدوار أكبر من حجمها الجغرافي والسكاني والاقتصادي، فلماذا لا تصبح عمان – العرب

عاصمة للتعريب ومركزاً إقليمياً وعربياً وعالمياً للمعربين؟! لماذا لا يصبح التعريب بمفهومه الحضاري والتعليمي والمؤسساتي شعاراً وعملاً للدولة الأردنية وثابتاً من ثوابتها بغض النظر عن وجهة نظر الحكومات. فالأردن يملك إمكانية أن يكون ملتقى كل الأطراف دون شبة السيطرة على أي طرف، فلماذا لا تعمل الدولة الأردنية على تحويل مجمع اللغة العربية الأردني إلى مجمع العوربة والتعريب لكل العرب، مما يجعل الأردن منارة التنوير والتغيير العربية من أجل تحقيق النقلة الحضارية... وهل من تنوير أو تغيير يقع خارج إطار اللغة القومية؟!.

فلقد كان غول التتريك الذي حاول القضاء على اللغة العربية في مؤسسات التعليم في البلاد العربية في ظل الدولة العثمانية بعدما اختطفها الطورانيون، كان من أهم أسباب الثورة العربية الكبرى، لذلك كان أول مجمع للحفاظ على اللغة العربية هو مجمع دمشق عام 1919، الذي كان نتاج الدولة العربية الفيصلية، التي كانت نتاج الثورة العربية الكبرى، ومن ثم كان هذا المجمع النواة الأولى لتعريب التعليم في مراحله كافة في سوريا. وقد حاول الأمير عبد الله مؤسس الدولة الأردنية الحديثة أن يكون للأردن أيضا مجمع للحفاظ على العربية منذ 1924، لكنَّ ظروف الأردن لم تمكّن تلك التجربة من رؤية النور إلا في عام 1976.

وبذلك فإن على ورثة الثورة العربية الكبرى في الأردن مسؤولية دينية وأدبية وفكرية وسياسية أن يوقدوا مشعل التعريب الآن وهنا، دون أي توان، في هذا البلد الذي طالما تحمّل أكثر من حجمه. فشرعية الدولة الأردنية مستمدة أصلاً من شرعية الثورة العربية الكبرى، التي كان الحفاظ على اللغة العربية من أهم أسبابها. فعلينا أن نتساءل تساؤلاً مشروعاً: ألا يمكن للأردن أن يكون مبادراً في أمر

التعريب رغم ضيق ذات اليد وقلة السكان؟ ألا يمكن للأردن أن يكون قائداً للدول العربية في هذا الشأن رغم كل المحددات؟ نعم يمكن ذلك، لأن الأردن يملك الإمكانات الآتية:

أولاً: قيادة تاريخية لها إرث ديني وحماية معروفة للتراث وللغة العربية كجسر مهم يصل الماضي بالمستقبل.

ثانياً : حركة تعليمية واسعة النطاق أَنتجت إمكانات بشرية متزايدة يمكنها أن تضطلع بأدوار كبيرة لو أتيح لها ذلك.

ثالثاً : تصدير كثيف للرأسمال البشري المتعلم إلى الكثير من الدول العربية المجاورة والبعيدة.

رابعاً: تأثير الأردن تعليمياً بما يجري في الجزيرة العربية في المدارس والجامعات.

خامساً : التفاعل الحميم مع العراق وفلسطين سكانياً واجتماعياً، وبالتالي يصبح الأردن رافعة لهما لمقاومة التهويد والأمركة على كل مستوى انطلاقاً من اللغة.

سادساً : الأردن هو الأقرب إلى سوريا صاحبة التجربة الرائدة في التعريب منذ عقود، لذا يمكن للأردن أن يتأثر إيجابياً بتلك التجربة، ويساهم في تطويرها وتحديثها لتلائم كل العرب بالتعاون مع العلماء الأنقياء من كل العرب.

وهنالك إمكانيات أخرى للأردن الصغير الحجم والسكان، الكبير بإرثه وجغرافيته، وبما يمكن أن يضطلع به من أدوار حضارية رائدة لو تبنّى التعريب لكل العرب كمنهج دولة وريثة لثورة كل العرب على من عادى لغة العرب.

أهمية التعريب في التنمية البشرية أردنياً:

الدولة الأردنية والنظام الأردني الذي ينشد توازناً اجتماعياً واقتصادياً من خلال نظام القبول المبني أساساً على الاستثناءات من مصلحته كوطن وككيان سياسي ذي أهداف وطنية في نظام القبول في جامعاته أن يتجه إلى التعريب والتعريب الشامل في تدريسه، فالمكرمة الملكية وغيرها من القبولات الاستثنائية أساس فلسفتها رفع سوية أبناء الشرائح الاجتماعية في المناطق الأقل رعاية من أجل أن يصبحوا في المستقبل أساس الحراك الاقتصادي والاجتماعي، والتعليمي والتثقيفي، وبالتالي السياسي في مناطقهم أو في شرائحهم الاجتماعية، وأن يحدثوا توازناً مع الشرائح الأخرى الأقرب إلى ثمار التنمية، لكن مع الأسف الشديد، مستوى تعليم هؤلاء الطلبة القادمين من الأطراف غالباً أقل من مستوى زملائهم خاصة في الكليات العلمية والهندسية والطبية والزراعية رغم ذكائهم البارز الذي يتحدّى ظروفهم القاهرة، لكن اللغة الإنجليزية هي كابوسهم المستمر، وهذه اللغة تمنع المكرمة الملكية من تحقيق الهدف الحقيقي من ورائها، وهو توزيع التنمية من خلال توزيع التنمية البشرية بإنتاج مخرجات للعملية التعليمية مبدعة ومؤثرة، وليس كمّاً متزايداً من الشهادات التي تزيد عدد العاطلين عن العمل من الذين يجهلون لغتهم في تخصصهم، ويجهلون الإنجليزية التي استظلوا بهجيرها لمدة أربع سنوات عجاف، ويجهلون أولاً وآخراً العلم الذي يحملون شهادته الكرتونية، لأنهم تلقوه بلغة يجهلون أغلب أسرارها ومجازاتها العلمية وانزياحاتها اللغوية التي تقدّم دقائق المعاني العلمية والتقانية.

فخريج مدارس القويرة أو الجفر أو الرويشد أو رحمة أو غيرها من القرى النائية قد يكون مبرزاً بين أقرانه ويستحق القبول في أفضل الكليات العلمية والهندسية والطبية، لكنه لأسباب لغوية تغريبية في الجامعة يفشل ويدخل مع الزمن

في دائرة الإحباط النفسي عندما يُرحّل من قسم إلى آخر، ومن كلية إلى أخرى، فإمّا أن يتخرَّج معلم مجال أو يُفصَل أكاديمياً من الجامعة فصلاً تاماً رغم قدراته العقلية البارزة، وقد حصل ذلك مراراً، وكلُّنا عليه من الشاهدين، ولا حل لمشكلات المقبولين استثنائياً بالمكرمة الملكية أو غيرها لتوزيع التنمية البشرية إلا بالتعريب الشامل، وإلاَّ تحولت الشهادات الكرتونية إلى حجاب تحول بين حملتها وبين مشاركة أهلهم في أعمالهم، فنساهم في زعزعة استقرار تلك المناطق بتكثير العاطلين وتقليل المبدعين لأسباب لغوية تغريبية أولاً وآخراً.

تراجع التعليم الجامعي والمدرسي في الأردن:

مما يؤسفُ له أن خطط رفع سوية التعليم المدرسي والجامعي في تكاثر مستمر، لكن حقيقة نوعية هذا التعليم في هبوط أكثر استمراراً، ولا سيما في شأن اللغة العربية وكذلك اللغة الإنجليزية، إلا في بعض المدارس الخاصة التي تُعلي من شأن اللغة الإنجليزية فوق كل شيء، كأنها لغة مُقدّسة دارسها يمسه بعض قدسيتها. ومع ذلك، فالتعليم في هبوط أسبابه ليست فقط قصور الكتب والمناهج والخطط وإنما السبب الحقيقي أن المعلم الحقيقي مات، ومنذ زمن، وخاصة معلم اللغة العربية الذي أصبح غالباً يُلقي دروس اللغة العربية بلا رؤية ولا روح ولا انتماء! أما الأستاذ الجامعي الحقيقي فأمره محكوم بقانون العملة، إذ إنَّ العملة المزيفة ما أسهل أن تخرج العملة الحقيقية من السوق إلا من رحم ربك، وكذلك كان

وهذا ما يكون في جامعاتنا الأردنية الآن، مما يُفاقم من ضعف الهيئات التدريسية أمام اتخاذ أي قرار بسيط، فكيف بقرار التعريب الاستراتيجي!.

ضياع اللغة العربية بين المدارس الحكومية والخاصة:

المدارس الحكومية مستوياتها متفاوتة بين عمان والمحافظات، وبين مراكز المحافظات ومدارس القرى والبوادي والمخيمات، والقاسم المشترك بين كل هذه التصنيفات، أن المدارس الحكومية تعاني من ضعف في مستوى المدرِّسين ودافعيتهم للتعليم، لا سيما معلم اللغة العربية الذي يحظى باهتمام أقل من زملائه لعدم الالتفات إلى أهمية المادة التي يدِّرسها في فهم واستيعاب كل الدروس الأخرى، لذا فإن التدريس في المواد الأخرى لا يستعمل إلاّ العامية أو العربية المكسّرة الحواشي والمحتوى، مما يُساهم في إضعاف الفهم وإضعاف تشكّل اللغة السليمة عند الطلبة من أجل التفكير السليم المبدع.

المدارس الخاصة المتواضعة:

أما المدارس الخاصة ذات المستويات التعليمية الأقل من المعدّل فهي تنتشر كالفطر، لكنها تعاني من نواقص هيكلية قاتلة، أهمها أنها تستقطب المعلمين الأقل كفاءة لا سيما في شأن اللغة العربية، وبسبب غول البطالة فإن هذه المدارس تتضاءل مكافآتها لمعلميها لحدود لا تسد الرمق، وأَحيانا لا تكفي للمواصلات، ومدّرس اللغة العربية يحظى غالباً بأقل هذه المكافآت، فكيف يجد الدافعية الحقة ليعلِّم ويتعلَّم الطرائق الجديدة والمتجددة في التدريس ولا سيما تدريس اللغة العربية، وهو يجد أن امتهان تدريس اللغة العربية في الزمن الصعب أَصبح

امتهاناً لكرامته وإنسانيته. فمدارسنا الخاصة ذات المستويات التعليمية المتواضعة خطر على العملية التعليمية لا سيما في شأن اللغة العربية المظلومة أولاً وآخراً...

المدارس الخاصة المعتبرة:

اللغات الأَجنبية ولا سيما الإنجليزية تحاصر اللغة العربية في المدارس الخاصة المعتبرة، فهنالك مدارس تدرِّس ابتداءً من الصفوف الأساسية الإنجليزية والفرنسية والألمانية واليونانية والعبرية على أن يختار الطالب لغة بالإضافة للإنجليزية، أما العربية فهي من الأمور التي تضطر هذه المدارس لتدريسها بإعطائها الحد الأدنى من الاهتمام. أما المواد العلميَّة وغير العلمية فتدرِّس باللغة الإنجليزية، فيخرج بذلك خريج هذه المدارس لا يعي لغة التواصل مع بني قومه ووطنه إلا لماماً، رغم أنه مُعدّ لأن يكون قيادياً من النواحي الاجتماعية والاقتصادية والسياسية كافةً في وطنه بحكم الواقع الماثل أمامنا جميعاً.

لكن مما يؤسف له أن المدارس الأردنية الخاصة المتخصصة في صناعة القيادات السياسية والاجتماعية والاقتصادية منذ عقود وبالتالي صناعة المسؤولين وصناع القرار السياسي والاجتماعي والاقتصادي، هذه المدارس المحترمة في الشارع الأردني هي تغريبية حتى النخاع، فهي لا تُعلي فقط من شأن اللغة الإنجليزية على العربية، بل تجعل الطالب المسكين يشعر بأن لغته الأم عبارة عن زائدة دودية في هذه المدرسة التي تتشكل فيها شخصيته ونظرته للوجود وللمجتمع وللحياة، فيصبح مع الزمن منظاره المتحكم بعقليته هو اللغة الإنجليزية، أما الزائدة الدودية في حياته المدرسية وبالتالي الجامعية والتي تدعى اللغة العربية فمكانها عنده هو مكان الفلكلور في حياة الشعوب يستدعونه لاستذكار أنهم تجاوزوه، لأنه

يُمثّل طفولتهم الحضارية، فهل اللغة العربية لغة حضارتنا وديننا وأمتنا ووجودنا أصبحت مجرد فلكلور للتفكه بها في مدارس خاصة الخاصة عندنا .

إنه لمن المؤسي والمحزن والمقلق أن مدارس خاصة الخاصة تقدّم كل شيء باللغة الإنجليزية حتى النشاطات غير المنهجية، وأما ما تحظى به اللغة العربية والتربية الإسلامية فوقت منكمش على ذاته، مستحيي من نفسه، وسط محيط تغريبي متنام فخور بذاته، لذا وجدنا بالبحث الأولي أنه قلما تنال اللغة العربية والتربية الإسلامية من منهاجيهما الذاتيين ثلث الوقت والجهد المطلوبين لهما، بل هنالك مدارس بعينها لا تنهي المناهجين إلا نادراً مع إشعارٍ خفي وظاهر للطالب بعدم أهمية هذين المنهاجين في السياق العام للتعليم المستغرب في هذه المدارس.

ولا بد هنا من بحث تربوي تقويمي لنواتج هذه المدارس، وقدرة هذه النواتج على التواصل مع محيطها الاجتماعي في الأردن، لكن هنالك بحث مطلوب على مستوى الدولة الأردنية كلها أكثر خطورة من البحث الأول وهو العلاقة المضطردة بين كون الشخص خريج مدارس تغريبية خاصة وبين وصوله السريع في العقود السابقة لأعلى المسؤوليات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في الأردن. هذا البحث الثاني نتائجه ظاهرة للعيان، لكن من باب العلمية والموضوعية المطلوبين، ومن باب كشف الأوراق كاملة لمجتمعنا بكل شرائحه لا بد من دراسة العلاقة بين الدراسة في هذه المدارس التغريبية وبين وصول طلبة هذه المدارس إلى أعلى المسؤوليات في الدولة الأردنية .

وليس استباقاً لنتائج هكذا بحث مهم، فإنني أزعم أن الترابط كبير بين كون الشخص من نواتج مثل هذه المدارس وبين تحوله لاحقاً إلى أحد صناع القرار في البلاد ومستقبل البلاد، وهذا أمر في غاية الخطورة على الدولة والوطن، وهو على المدى الطويل يهدد الدولة الأردنية بهويتها العربية بأوخم النتائج، عندما تصبح النخب الأكاديمية والنخب الاقتصادية والنخب السياسية وبالتالي النخب الاجتماعية منفصلة لغوياً وثقافياً عن مجتمعاتها. فكيف تقرر مصير المجتمعات نخب منفصلة حضارياً عن هذه المجتمعات؟! وهذا الأمر المهم جداً على مستوى الدولة الأردنية كلها، والذي لا يُعطى الاهتمام الكافي في التخطيط للأردن عام ألفين وعشرين في الاستشرافات المستقبلية التي قدمت فيها جملة أوراق، هذا الأمر المهم إن تُرك فيه الحبل على الغارب، كما هو حاصل الآن، فإنه سيؤدي إلى تعميق الشقة بين هذه النخب المتغرّبة في أوطانها والتي استنبتت في جزر تغريبية هي مدارسهم الخاصة جداً وبين السواد الأعظم من الشعب الأردني المطلوب منه أن يقاد اقتصادياً وسياسياً من قبل هؤلاء المستنبتين في هذه الجزر التغريبية. هذه الشقة الموجودة والمرشحة مستقبلاً للتفاقم الذي لا تُحمد عقباه ستؤدي حتماً إلى المزيد من التوترات الاجتماعية والسياسية عندما تصبح النخب من أصحاب القرار في وادٍ، والمجتمع كله في وادٍ آخر.

نحن جميعاً نقابل كل يوم أعداداً من الأساتذة والمهندسين والأطباء وكبار موظفي الدولة من خريجي هذه المدارس، الواحد منهم قدرته على التحدث والمناقشة أو المحاضرة أو الكتابة أو الاستيعاب في اللغة العربية أقل من أجنبي تعلَّم اللغة العربية في كبره، وهؤلاء الذين بلغ التغريب نخاع عظامهم هم الأقرب

رحماً إلى صانع القرار في الأردن وفي الكثير من الدول العربية لأنهم القناة السالكة في العلاقات الخارجية مع الغرب، لذلك فهم الأحرص على إفشال أي تجربة تعريب أو خطة شاملة للتعريب في الأردن والدول العربية. وقد أَفشلوا بكل برودة أعصاب تجربة تعريب التعليم الجامعي في الجامعة الأردنية في بداية ثمانينيات القرن الماضي، وكذلك أفشلوا المحاولة المتواضعة من قبل ثمانين من أساتذة جامعة اليرموك أيضاً، وهاهم يسعون حثيثاً للمساهمة في قتل تجربة جامعة آل البيت على اعتبار أن تجربتها التعريبية نشاز في ظل إجماع على عدم التعريب بالفعل وليس بالقول، في الجامعات الأردنية الأخرى كافَّةً.

فهؤلاء التغريبيون نتاج مؤسسات تغريب التعليم في مدارسنا وجامعاتنا تغربت أرواحهم وأَفكارهم وتطلعاتهم قبل أن تتغرب ألسنتهم وأقلامهم، لذا فهم حقاً يدافعون عن أنفسهم وعن الصورة المستغربة التي شكلَّوها عن أنفسهم، عندما يعملون على إحراق الأخضر واليابس لمنع نجاح أي محاولة لتعريب التعليم في الأردن، وقد نجح التغريبيون إلى أبعد مدى في محاصرة اللغة العربية في مدارسنا العامة والخاصة، وفي جامعاتنا الرسمية والخاصة، حتى أصبح الطالب المدرسي والجامعي وكذلك الأستاذ المدرسي والجامعي يخجل من ارتكاب أيِّ خطأ منطوق أو مكتوب في اللغة الإنجليزية، ولا يلتفت الواحد منا إذا ما ارتكب أيَّ خطأ لغوي في اللغة العربية على اعتبار أن لغة حضارتنا وديننا وقرآن ربِّنا ولغة تفكيرنا ووجداننا أصبحت في مخيالنا المستلب من فصيلة الدنياصورات المعرفية، لذا فإن عدم العلم بها لا يضير غير المتخصصين بعلم الديناصورات اللغوية، وهذه يشهد الله ليست مبالغة، وإنما حقيقية دامغة متكررة...

هذه المحاصرة للغة العربية في مدارسنا وجامعاتنا إن لم تتوفَّر الإرادة الفكريَّة والسياسيَّة والتربويَّة القويَّة لوقف الانهيار المتنامي فيها، فإن استشراف المستقبل يُنذر بنتائج غير مُشرّفة على مستوى الجامعة والمدرسة والطالب والأستاذ، وبالتالي القيادات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، لكي تكتمل دائرة فقدان الدور والهوية، ومن ثم تكريس الاستلاب والتبعية بكل أشكالها المادية والمعنوية في الوطن و الأمة.

المدارس الخاصة المسيحية :

هذه المدارس الخاصة ذات الطابع المسيحي في الأردن هي جزء أساسي من النسيج التربوي والتعليمي والحضاري في هذا الوطن منذ ما قبل تأسيس الدولة الأُردنية، وقد كان إرث هذه المدارس في لبنان وفلسطين يقوم عل كوكبة من المدرسين والكتاب العرب المسيحيين الذين ساهموا بكل جدارة في الدفاع عن اللغة العربية ضد التتريك، وفي تأكيد وجودهم العربي الراسخ من خلال إحياء التراث العربي وتوسيع دائرة انتشاره، بل هم من أول الذين عرَّبوا الآداب والعلوم في لبنان وسوريا ومصر وكان لهم أثر لا ينكر في الأردن أيضاً.

لكن مع الأسف الشديد فإن المدارس الخاصة المسيحية الطابع في الأردن والدول العربية الآن أقل تركيزاً على اللغة العربية من اللغات الأوروبية، ليس فقط في مواد التدريس العلمية والتربوية والاجتماعية، وإنما حتى في المحادثات الشَّفوية في المدارس وفي الحفلات وفي المسرحيات المدرسية، وهذا أمر مؤسف ومحزن،

فماذا جرى منذ القرن التاسع عشر إلى بدايات القرن الحادي والعشرين، ألم تبقَ اللغة العربية بما تمثله من تراث متصل منذ ما قبل الإسلام إرثاً مشتركاً كان لأجدادنا من العرب المسيحيين أكبر وأبهى الأدوار الجليلة في إثرائه وتعميقه وإحيائه. لماذا تعمّق المدارس المسيحية الطابع الآن إحساس الطالب بأن مرجعيته الفكرية هي التراث والحاضر الغربي وليس التراث العربي الإسلامي؟!.

أما كان الأجدر بالمدارس الخاصة المسيحية الطابع في الأردن أن تركّز على اللغة العربية لتأكيد تجذرهم الأكيد في التراب العربي، وأنه من الأجدر لهذه المدارس المهمة في الأردن أن تدِّرس مادة إضافية لكل طلبتها بكل مستوياتهم توضِّحُ بعلميةٍ وشموليةٍ دورَ العرب المسيحيين في الحضارة العربية الإسلامية، ودورهم في التعريب في بدايات النهضة العربية الحديثة منذ أواسط القرن التاسع عشر، فلا يجوز لإخوتنا العرب المسيحيين في الأردن سدنة التعريب والعربية تاريخياً أن يكونوا سدنة التغريب في مدارسهم المهمَّة لنا ولهم في الأردن!.

المدارس الخاصة الإسلامية الطابع:

ومن المدارس الخاصة التي كان يؤمّل أن تبقى نموذجاً وقلعة حصينة على التغريب هي المدارس الإسلامية الطابع، والمثال عليها هنا مدارس الكلية العلمية الإسلامية بكل ما تمثِّله من أصالةٍ ومعاصرةٍ في شأن تعليم اللغة العربية والتعليم بها، لكن لأمر ما ولضغوط الواقع المتأثر بالتغريب الكاسح، بالإضافة لضغط بعض أولياء الأمور، جعلت هذه الكلية العريقة تدرس المواد العلمية باللغتين العربية والإنجليزية، وتركز شيئاً فشيئاً على برنامج موازٍ للتعليم أساسه

اللغة الإنجليزية في أغلب المواد، فهل نقول إن هذه القلعة الحصينة للأصالة بدأت تفقد موقعها ونكهتها عندما تتحول إلى نسخة مكررة لغيرها من المدارس الخاصة المتخصصة في إفقاد اللغة العربية لدورها الأصيل في التعليم وبناء الفرد الأصيل.

مقترحات إجرائية لتشجيع التعريب في المدارس:

لوقف الانهيار لا بد من إجراءات عملية تنبثق من خطط مدروسة انطلاقاً من استراتيجية وطنية للتربية والتعليم في الأردن لوضع اللغة العربية في مكانها الوطني الصحيح في المدارس الحكومية والخاصة، مع مراقبة حثيثة وقياس دقيق لمدى التزام تلك المدارس باللغة العربية في تدريس المواد كافة وفي اشتراط إتقانها على المعلمين كافة كشرط مسبق لتعيينهم وترفيعهم، مع إعطاء مدرس اللغة العربية المتابعة والاهتمام الكافيين ليضطلع بدوره الأصيل، مع إدخال اللغة العربية في صلب تدريس الحاسوب وأساليب الربط المعلوماتي بين المدارس والجامعات والمراكز البحثية، وحتى في عمليات الربط مع المواقع الإلكترونية العالمية من أجل المساهمة بالارتقاء باللغة العربية في المدارس والمجتمع بالطرق المتجددة عالمياً، لتصبح اللغة القومية هي أساس المعرفة والهوية، والفتوح العلمية والانفتاحات المجتمعية.

مقترحات إجرائية لتشجيع التعريب في الجامعات الأردنية:

ومن الأمور الإجرائية البحثية التي يمكن اقتراحها هنا مع إمكانية تعديلها وتطويرها لتشكل بذرة إجرائية لتحفيز الترجمة والتأليف باللغة العربية في الجامعات الأردنية إن تبنت التعريب بشكل متدرج، وإن أرادت جذب الأستاذ الجامعي

للمشاركة الفعلية الرسمية في التعريب. فيمكن اشتراط ترجمة كتاب متخصص على الأقل لأي مدرِّس جديد في الجامعة قبل أن ينتقل من درجة مدرس إلى درجة أستاذ مساعد، ثم أن يشترط نشر بحثين باللغة العربية على الأقل في كل ترقية، ثم اشتراط بحث ينشر كل عامين باللغة العربية للأستاذ الدكتور وإلا توقَّفت علاوته السنوية، ثم إضافة بند مهم إلى مجلاتنا العلمية المتخصصة باسم ترجمة الأبحاث العلمية الحديثة المتخصصة، على أن تكون ترجمة كل خمسة أبحاث في التخصص الدقيق للأستاذ الجامعي بما يعادل بحثاً مفرداً لغايات الترقية، ويمكن تقديم حزم أخرى للخطوات الإجرائية لتشجيع التعريب، لكن لا بد من البدء في ذلك بأسرع وقت وإلا فقدنا وزننا في المعترك العلمي والتقاني والحضاري.

حتمية التعريب أم استحالته؟

هل التعريب في الأردن والدول العربية للمدارس والجامعات حتمي في المستقبل القريب أو البعيد، أم أنه مستحيل وتزداد استحالته كلما أغرقتنا العلوم والمعارف بالمزيد من طوفاناتها، مع العجز التام عن ملاحقتها؟ سؤال مركّب ومؤلم ومعقّد! وجوابه أكثر تركيباً وإيلاماً وتعقيداً، لكن العنوان الرئيسي لهذا الجواب أن التعريب حتمي ومستحيل في آن معاً، فهو حتمي لأنه قدرنا، ومستحيل أن يحصل بنفسه دون تشكيل الإرادة المجتمعية والسياسية والأكاديمية والبحثية الفاعلة والمتنامية التي تحوّل الاستحالة المفترضة إلى حول وقوة في مدارسنا وجامعاتنا. فما الذي يمنع هذه الإرادة من التشكل عندنا رغم أنها تشكلت في أمم وشعوب أقل عدداً وأضيق امتداداً وأفقر تراثاً ولغة منّا، لكنها تأبى الذوبان المستخذي للهجمة العولمية المتأمركة التي تجتاح اللغات والثقافات، بسطوة الإعلام الكاذب وترهيب الدبابات وانتشار الدين الجديد الذي يدعوه الفيلسوف الفرنسي المسلم روجيه جارودي بدين السوق ليصبح كل شيء برسم البيع حتى الأمم والشعوب واللغات

والثقافات... فتعريبنا لمدارسنا وجامعاتنا هو رفض لدين السوق الذي شيّأ الإنسان وقدّس الفكر الاستهلاكي للأشياء، ويسعى إلى تحويلنا إلى قطعان تستهلك العلم والتقانة والإعلام المنحاز مع تنامي ثقافة الخوف من مخالفة الأسياد، الذين يدعون الحياد، رغم أنهم بلغة الآخر يكرِّسون الانقياد.

المراجع

١ -تجربة مجمع اللغة العربية الأردني في تعريب العلوم، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، عدد 15-16.

٢ -التعريب وتنسيقه في الوطن العربي، د. محمد المنجي الصيادي، مركز دراسات الوحدة العربية الطبعة الثانية، 1982.

٣ -تعريب التعليم الجامعي (بحوث في اللغة العربية ومشكلات تعريب العلوم)، دار آفاق للنشر والتوزيع، عمان 1994.

٤ -تعريب العلوم – دراسات ومقالات، أ.د. عادل أحمد جرار، دار الضياء للنشر والتوزيع ، عمان ، 2004.

٥ -حركة التعريب في الأردن، د. عبد الرؤوف خربوش، وزارة الثقافة، عمان، 2002.

٦ -دراسات في الترجمة والمصطلح والتعريب، شحادة الخوري، دمشق 1996.

٧ -العجز عن التعريب في مجتمع تابع، الطاهر لبيب، المستقبل العربي، العدد 29 تموز 1981.

٨ -اللغة العربية والتعريب في العصر الحديث، أ.د. عبد الكريم خليفة، منشورات مجمع اللغة العربية الأردني، 1987.
٩ -لماذا نجح القرار السياسي في الفيتنام وفشل في ...؟ د. صالح بلعيد، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، 2002.
١٠ -الموسم الثقافي الأول لمجمع اللغة العربية الأردني، تجربة مجمع اللغة العربية الأردني في تعريب التعليم الجامعي ، 1983.
١١ -الموسم الثقافي الثاني لمجمع اللغة العربية الأردني، تجارب في التعريب، أ.د. محمود الجليلي ، 1984.
١٢ -الموسم الثقافي السادس لمجمع اللغة العربية الأردني، اللغة العربية في مؤسسات التعليم العام والجامعي وأساليب النهوض بها في الأردن، أ.د. محمود إبراهيم.
١٣ -الموسم الثقافي التاسع لمجمع اللغة العربية الأردني، واقع التعريب في الجامعة الأردنية ص (35 – 57)، دور المؤسسات السياسية والعلمية والإعلامية ص (77-103) .
١٤ -الموسم الثقافي الثامن عشر لمجمع اللغة العربية الأردني، تعليم اللغة العربية في مرحلة التعليم العام في المملكة الأردنية الهاشمية، أ.د. إسماعيل عمايرة، 2000.
١٥ -الموسم الثقافي العشرون لمجمع اللغة العربية الأردني، اللغة العربية في الجامعات الأردنية المشكلات والحلول، 2002.